حرية الإنسان

في التصور الإسلامي

دكتور

جمال نصار

دكتوراه فى الفلسفة الإسلامية

د. جمال نصار

حرية الإنسان في التصور الإسلامي

دار الأندلس الجديدة

Karam Ahmed

الأندلس الجديدة

للنشر والتوزيع

18 شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - تليفون: 01010681135

newandalus@hotmail.com

حرية الإنسان
في التصور الإسلامي

دكتور
جمال نصار
دكتوراه في الفلسفة الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١٦٠٨م

الترقيم الدولى: I.S.B.N
978-977- 456-226-4

الأندلس الجديدة
للنشر والتوزيع
18 شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - تليفون: 0101068135
newandalus@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الخلق وحبيب الحق ﷺ وعلى آله وأصحابه، ومن اقتفى أثره، واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تميز الإسلام بالسماحة واليسر وصلاحية التطبيق فى كل زمان ومكان؛ فتعاليمه السمحة تنبثق من علم الله بطبيعة النفس البشرية، لكن ابتعاد الإنسان عن هدي الإسلام جر عليه الكثير من المفاهيم الخطأ التى تطمس وجه الحق، وتزيف الحقائق، وتقوض أركان عقيدته، مما يوجب على علماء الأمة ضرورة تصحيح الصورة، والقيام بأعباء تلك الحرب الضروس، ووضع الأمور فى نصابها.

ومن أهم هذه المفاهيم الخطأ، القول بسبق النظم الوضعية والثقافة الغربية بإقرار حقوق العدل والمساواة منذ انطلاق الثورة الفرنسية فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م التى كانت مبادئها: الحرية، العدل، المساواة.

وغاب عن نظر الكثيرين أن الإسلام سبق إلى إقرار هذه المبادئ منذ انطلاق دعوته؛ فقد قرر حرية العقيدة حين قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقرر العدل حين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقرر المساواة حين قال المصطفى ﷺ: «**الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»، وبذلك سبق الإسلام زمنيًا النظريات الوضعية إلى إقرار هذه المبادئ. ليس هذا فحسب، بل إن ما «عرفته فكرة الحضارة الغربية حديثًا في باب حقوق الإنسان، قد عرفته الحضارة الإسلامية بل ومارسته قديمًا لا كمجرد حقوق للإنسان، وإنما كفرائض إلهية، وتكاليف وواجبات شرعية»[(١)].

لا نقول هذا الكلام رجمًا بالغيب، ولا تقوُّلاً على الله -عز وجل- فالله تعالى «جعل إقامة هذا الدين تكليفًا فرضه على الإنسان، وكما هو معروف أن (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، فإن هذا الدين لا يقوم على الظلم، ولا يقوم مع الكيل بمكيالين، فإقامة الدين، وحفظ الضرورات الخمس، لا تقوم إلا على الحرية والعدل والمساواة وغيرها، لذلك فهي من الواجبات لا الحقوق»[(٢)].

(١) الإسلام والأمن الاجتماعي، د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٨، بتصرف.

بل ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين قرر أن حفظ البدن والنفس مقدم على حفظ الدين؛ «لأن الدين لا يقوم إلا بالمحافظة على تلك النفس وهذا البدن، فعلى النفس تقع التكاليف الشرعية، الأمر الذى يستوجب المحافظة على صحة البدن وبقاء النفس للقيام بهذه التكاليف والعمل على إقامة الدين»[1].

وبذلك ارتفع الإسلام بهذه المبادئ إلى درجة الضرورات التى لا يجوز لأحد أن يتنازل أو يتخلى عنها مكرهًا أو راضيًا، فكما لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا طعام أو شراب أو مسكن، فكذلك لا يستطيع العيش بلا حرية.

والإسلام السمح لا يقف عند هذا الحد، فإنه لا يكتفى بتقرير هذه المبادئ، وجعلها من ضرورات الحياة، بل يتعدى ذلك إلى إطلاق صفة العموم على هذه الضرورات، «فمنحها لكل بنى البشر بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الدين؛ ليثبت بذلك تهاوى العنصرية الغربية، وليجعل الجميع على قدم المساواة»[2]؛ لأننا نعيش فى سفينة واحدة، فالربان والعامل يتكاتفان للوصول بها إلى بر الأمان.

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، د. محمد عمارة، دار السلام، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص١٦، بتصرف.

(٢) الإسلام والأمن الاجتماعى، ص٨٤ وما بعدها، بتصرف.

كانت هذه كلمات لا بد منها؛ لتوضيح حقيقة الأمر، ورغبة أكيدة فى العودة إلى منابعنا ننهل منها ونكشف مزاياها، ولا نتسول الحرية والعقلانية عند من فقدها، ويدعى أنها منه وإليه تعود «فما فى النار للظمآن ماء»، وحتى لا نكون:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

وتلك خطوة فى سلم إعادة استقراء إسلامنا، تحتاج إلى المزيد؛ لنصل معًا لا إلى سعادتنا وإنما سعادة العالم بأسره، فتلك مهمتنا، وهذا قدرنا، وما رسالتنا إلا ذاك؛ لنملأ الكون عدلاً، كما جاوز الحد جورًا.

ونحن نعلم أن من بنى جلدتنا من سيناصبنا العداء، رافضًا الإسلام حكمًا، يدعى البناء والمعول فى يديه، فعلينا أن نشحذ الهمم، ونحمل عبء هذه الرسالة على كاهلنا، فالطريق جد عسيرة، والرسالة لا بد لها من وصول، والغاية واضحة، والجنة غالية، «ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر» و«البحر الهادئ لا يصنع ملاحًا ماهرًا».

والله من وراء القصد

د. جمال نصار

مدير المركز الحضارى للدراسات

الفصل الأول

تأصيل الحرية فى الإسلام

المبحث الأول: معنى الحرية

المبحث الثانى: الحرية فى القرآن والسنة

المبحث الأول:

معنى الحرية

المعنى اللغوى:

من خلال البحث فى المعاجم العربية نجد أن مادة «ح ر ر» تشير إلى الكثير من المعانى حيث إنها:

«حَرَّ الرجل: أى عطش، ويقال: أحر الله صدره: عطَّشه»[1]، ومن هنا تنجلى دقة الألفاظ العربية، ودلالتها على المعنى بحيث تتنافى أن تكون اعتباطية، فالمعنى اللغوى يقرر مبدئيًا كون الحرية -فى المعنى والمبنى- من الضرورات التى يجب أن يتمتع بها الإنسان، فكما أن منع الماء عن الإنسان يؤدى إلى هلاك بدنه ونفسه، فكذلك تضييق الخناق على حرية الإنسان تؤدى إلى هلاك عقله وسلب إرادته.

و«العبدُ حرارًا: خلص من الرق، وحرره: أعتقه، ويقال: حرر رقبته»[2]. ولا يخفى دلالة التعبير القرآنى عن العبد والأمة فى مجال العتق بالرقبة»، وعن الأمة خاصة «بملك اليمين»، وذلك تماشيًا لم تحمل الكلمتان من معانى الذل والدونية، ولتأثير الانطباع عند ذكرها، فقد حولها القرآن إلى الرقبة بكل ما تحمل من معانى الشرف والشموخ وطيب الأصل، و«اليمين» وما ترتبط به فى الذهن من معانى الخير

(١) المعجم الوسيط، ١/ ١٧١.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٧١.

المبحث الأول:

معنى الحرية

المعنى اللغوى:

من خلال البحث فى المعاجم العربية نجد أن مادة «ح ر ر» تشير إلى الكثير من المعانى حيث إنها:

«حَرَّ الرجل: أى عطش، ويقال: أحر الله صدره: عطَّشه»[1]، ومن هنا تنجلى دقة الألفاظ العربية، ودلالتها على المعنى بحيث تتنافى أن تكون اعتباطية، فالمعنى اللغوى يقرر مبدئيًا كون الحرية -فى المعنى والمبنى- من الضرورات التى يجب أن يتمتع بها الإنسان، فكما أن منع الماء عن الإنسان يؤدى إلى هلاك بدنه ونفسه، فكذلك تضييق الخناق على حرية الإنسان تؤدى إلى هلاك عقله وسلب إرادته.

و«العبدُ حرارًا: خلص من الرق، وحرره: أعتقه، ويقال: حرر رقبته»[2]. ولا يخفى دلالة التعبير القرآنى عن العبد والأمة فى مجال العتق بالرقبة»، وعن الأمة خاصة «بملك اليمين»، وذلك تماشيًا لم تحمل الكلمتان من معانى الذل والدونية، ولتأثير الانطباع عند ذكرها، فقد حولها القرآن إلى الرقبة بكل ما تحمل من معانى الشرف والشموخ وطيب الأصل، و«اليمين» وما ترتبط به فى الذهن من معانى الخير

(١) المعجم الوسيط، ١/ ١٧١.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٧١.

تكرارى يعزز تأصيل هذه الذاتية الداخلية الضرورية ويؤكدها، ويزيد من تأكيدها تشديد الحرف التكرارى.

فيؤكد علم الأصوات أن الحرية من ضرورات الحياة الإنسانية التى لا غنى عنها.

المعنى الاصطلاحى:

تعددت تعريفات الحرية بصورة كبيرة، أسهمت بشكل ما فى تعزيز الإشكال لهذه المشكلة، ورغم كثرة هذه التعريفات إلا أننا لا نجد تعريفًا يمكن أن نطلق عليه «الجامع المانع»، فاهتمت بعض التعريفات بالمعنى النفسى، وأخرى بالمعنى الخلقى، فى حين اهتمت ثالثة بالمعنى الميتافيزيقى.

فالحرية فى أبسط معانيها هى تلك التى تقابل الرق أو الأسر، وهى كذلك اختيار الفعل مع إمكانية اختيار غيره أو ضده؛ فالإنسان الذى خلص من الرق، ولديه إمكانية اختيار الأفعال وطرح البدائل لما يقوم به هو إنسان حر فيما يختار.

وتجدر الإشارة إلى التنبيه أن معنى الحرية يتصل كثيرًا بالثقافة أو الدين؛ ففى الثقافة الغربية هى التخلص من كل القيود والضوابط بما يسمى الحرية المطلقة فى إيذاء الآخرين، والإضرار بالصالح العام، فى حين أنها فى الثقافة الإسلامية هى الالتزام بالضوابط الشرعية والقيم الدينية بما يحقق السعادة للفرد والمجتمع، فالحر هو الذى قيد نفسه بقواعد الدين وأطره يتصرف فى محيطها، ولا يخرج عن مجالها؛ لضمان سعادته فى الدنيا والآخرة، هذا هو الحر ولا حر سواه.

المبحث الثانى:

الحرية فى القرآن والسنة

من أبجديات الشريعة الإسلامية أن القرآن والسنة كفلا الحرية بصورها المختلفة، وتنوعت أشكال وطرق وأساليب تناولها وتقريرها، والسنة فى ذلك أوضح من القرآن الكريم؛ فالقرآن حمّال أوجه، والسنة توضح ما جاء فى القرآن الكريم.

ولأن القرآن ظنى الدلالة -فى آيات كثيرة- ولبعد الإنسان المعاصر عن فترة نزول الوحى، واحتمال أساليب اللغة لكثير من التأويلات والتفسيرات التبس الأمر على كثير من المسلمين فيجدون أن الله منح الإنسان كامل الحرية باعتباره مسئولاً عن أفعاله، ثم يجدون من الآيات ما يدل ظاهره أن الإنسان لا يملك الخيار، وأن الله قرر سلفًا الصالح والطالح، مما حدا بالبعض برمى القرآن الكريم بالتناقض والغموض وعدم الوضوح. وفيما يلى نتناول حديث القرآن الكريم عن الحرية، نتقصى الأدلة، ونجمع بينها، بما يزيل غموضها، ويجلو التباسها.

القرآن الكريم يعطى الحرية للإنسان والخيار فى سلوك طريق الخير أو الشر، فالإنسان يستطيع بعقله أن يختار ما يرغب فيه، وما يناسبه، وله فى ذلك الحرية الكاملة. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]،

وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].
وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال كذلك: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. هذه الآيات وغيرها كثير تجعل الخيار بيد الإنسان، وتمنحه مطلق الحرية فى اختيار الطريق الذى يتعين عليه تقبل عاقبة اختياره وتداعياته.

وعلى الجانب الآخر، نجد العديد من الآيات تشير إلى أن الإنسان لا يملك لنفسه هداية، وليس له حق الاختيار الذى هو بيد الله وأمره، إن شاء منحه، وإن شاء منعه. قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وغيرها كثير مما يقول بأن الهداية من الله إن شاء هدى الإنسان إلى ينابيع الخير والإيمان، وإن شاء أماته عطشًا وما حوله إلا الماء.

فى حين أن هناك آيات تقول بأن الله له المشيئة فى ذلك، ولو أراد أن يهدى الناس جميعًا لفعل، ولو أراد أن يكونوا أمة واحدة لكان، مما حدا بالبعض أن يظن أن سعى الإنسان عبث

لا طائل منه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]. بل أكثر من ذلك، فالله -سبحانه وتعالى- يتجاوز عمن يشاء، ويعاقب من يشاء؛ قال تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

كذلك فإن الله يزيد الضال ضلالاً، ويزيد المهتدى هدًى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

فما هو وجه الحق؟! وهل ثمة تعارض بين الآيات؟! وهل المجال مفتوح للتوبة والإنابة؟ نجيب على ذلك لاحقًا.

أما السنة فقد وضحت القرآن الكريم وفسرته، كما تناولت ألوان الحرية المختلفة، وباستقراء كتب السنة نعلم أن هناك الكثير من الأحاديث التى تناولت الحرية، وأقرتها، وجعلت لها أولوية خاصة؛ نظرًا لما يترتب عليها من مصالح إن هى طُبقت وفُهمت وفق المنهج الإسلامى، ومفاسد ومضار إن هى حُرفت وبُدلت، وكانت السنة فى ذلك واضحة تمامًا، فالأحاديث يؤيد بعضها بعضًا، ويعضد بعضها بعضًا. ففى حرية اختيار الحاكم، لم

ينص رسول الله ﷺ صراحة على خليفة من بعده، رغم وجود أحاديث تشير ضمنًا إلى استخلاف أبى بكر -رضى الله عنه- وترك الرسول ﷺ لأصحابه الحرية الكاملة فى اختيار خليفته، فقد تربوا على تحمل المسئولية، والقيام بالأمر خير قيام. وقرر المصطفى ﷺ حرية إبداء الرأى وأثاب عليها، ولم يكن بالذى يستبد برأيه، وحض على قول الحق ورفض الظلم؛ فقال المصطفى ﷺ: **«إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم فقد تُودِّع منهم»**(١). وكثيرًا ما كان يشير على أصحابه ويقبل منهم، وأخبار الخباب بن المنذر فى ذلك مشهورة حين أشار على رسول الله ﷺ بتغيير مكان الجيش فى بدر فقبل منه وأثنى عليه. وقرر كذلك حرية التملك التى شغلت كثيرًا العالم الغربى لإقرارها، فقال ﷺ: **«إذا أسلم الرجل فهو أحق بأرضه وماله»**(٢). وفى حضه على عتق الرقاب يقول: **«من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار حتى فرجه بفرجه»**(٣). كما أقر المكاتبة ليحصل العبد على حريته. ليس هذا فحسب، بل قرر المصطفى ﷺ قاعدة «المتهم برىء حتى تثبت إدانته» قبل إرسائها فى القوانين الوضعية بقرون عدة، فقال: **«من بهت مؤمنًا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله يوم القيامة على**

(١) مسند أحمد، ٢/ ١٩٠.

(٢) مسند أحمد، ٤/ ٣١٠.

(٣) صحيح مسلم، باب العتق، حديث رقم (١٥٠٩).

تل من نار حتى يُخرج مما قال فيه»[1]. وفى تقرير حرية العقيدة يقول أبو زرعة بن سيف بن ذى يزن قال: كتب إلىّ رسول الله كتابًا هذه نسخته فذكرها، وفيه: «ومن يكن على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن منها، وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى أو حر أو عبد دينار أو قيمته من المعافر»[2]، وغير ذلك كثير.

من ذلك كله نقول إن الإسلام قد أقر الحرية بألوانها المختلفة، ورغم أن ذلك تشريف للإنسان إلا أن «تقرير الحرية لا يعنى إثبات شىء قد منح لنا، بل هو تقرير لمهمة علينا أن نعمل على تحقيقها»[3]. فالحرية تكليف خطير على الإنسان، عليه أن يقوم باستغلالها الاستغلال الأمثل، فهى طريق النجاة، وسلم الوصول. ولكن يجب التأكيد أن هذه الحرية سلاح ذو حدين، فيمكن أن تكون سببًا فى تقدم المجتمع ورقيه، ويمكن أن تكون سببًا فى هلاكه واضمحلاله. وعلى كل حال فالحرية هى القيمة التى ينشدها الإنسان والحيوان على حد سواء ولا مجال للتخلى عنها مهما كان الثمن.

إن إقرار القرآن الكريم والسنة النبوية لدعائم الحرية ليدل بما لا يدع مجالاً للشك على أهمية الحرية ودورها الفعال فى بناء المجتمع فعليها تدور قيم كثيرة، وانطلاقًا منها تتبلور نظرة الناس للحياة والمجتمع.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٣٣٨. (٢) سنن البيهقى، ٩/ ١٩٥.
(٣) مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم، الطبعة الثانية، مكتبة مصر، ١٩٦٣م، ص١١.

الفصل الثانى
ألوان الحرية فى الإسلام

المبحث الأول: الجبر والاختيار

المبحث الثانى: ألوان الحرية

المبحث الأول:

الجبر والاختيار

هل الإنسان حقًّا حر فى سلوك الطريق الذى يشاء؟ هل هو من الناحية الميتافيزيقية حر فى اختيار عمله وسلوكه للطريق الخير أو الشرير، أم أنه «سبق السيف العذل»، وكتب الله عليه فعله وسلوكه قبل ميلاده؟ هل الإنسان مخير أم مسير؟

مسألة زلّت فيها أقلام، وفنيت فيها أعمار، ولكننا هنا لا نعرض لأدلة الفلاسفة والمتكلمين، بل نجيب عن هذا التساؤل من زاويتين:

الأولى: من هو الإنسان؟

الثانية: مسئولية الإنسان.

إذا أردنا معرفة من هو الإنسان بصورة بسيطة وعفوية نقول إنه خليفة الله فى الأرض، خلقه الله لا ليستأنس به من وحشة، ولا ليستكثر به من قلة، ولا ليستعين به على أمر عجز هو عنه -معاذ الله- وإنما خُلق الإنسان ليُعمّر هذه الأرض، ليسير على المنهج المرسوم من الله، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. فغاية خلق الإنسان عمارة الأرض، ورسالة الإنسان فى الأرض عمارتها، فهو

الخليفة عليها، ولقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**»(١). ولكن مهمة الإعمار ليست على إطلاقها، بل لا بد أن تخضع لقانون يحكمها، وأيديولوجية تسير عليها، ولذلك فإننا نجد من الأمم البائدة من استطاعوا إعمار الأرض، وقاموا بذلك خير قيام، ومع ذلك أخذهم الله بعذابه؛ لأنهم حادوا عن الجادة، وأعرضوا عن المنهج، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [الروم: ٩]، ومن مادة (ع م ر) تأتي العمرة، وهي إعمار لبيت الله الحرام دائم؛ بإحياء سنة العمرة، والتوجه إلى الله تعالى.

إذن فهنا مهمة تقتضي الحرية في القيام بها، وابتكار وسائل جديدة، كما أنها تقتضي تقيداً بالمنهج الإسلامي القويم، فهي ليست حرية مطلقة أو جبراً محضاً.

(١) الأدب المفرد- البخاري، باب اصطناع المال.

والإنسان كذلك باعتباره خليفة الله «فلا هو سيد هذا الوجود حتى تكون حريته مطلقة فيه، ولا هو الحقير المتلاشى الذى لا خلاص له إلا بالفناء فى الكل أو المطلق»(١).

إذن فحرية الإنسان مقيدة بإرادة الله «ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة»(٢).

وكما أن لله -تعالى- إرادة فللإنسان إرادة بها يكسب أو يكتسب، وبتوفرها يحاسب على ما فعل فى حدود ما أتيح له من إمكانيات «إننا لن نُسأل أبدًا عما لا إرادة لنا فيه، ولكننا نسأل يقينًا عما نملك فيه حرية الاختيار»(٣).

فالإنسان نفسه يحاسب أبناء جنسه حسب قانونه الوضعى على ما فعلوا إذا ما توفرت الإرادة واكتملت الأركان.

ثانيًا: مسئولية الإنسان عن أفعاله:

قلنا إن الإنسان حر فى سلوك الطريق الذى يرغب فيه، وذلك يقتضى بداية أن يكون الإنسان مسئولاً عن أفعاله،

(١) فى المنهج الإسلامى، د. محمد عمارة، الطبعة الأولى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ص١١٣.

(٢) هموم الأمة الإسلامية، د. محمود حمدى زقزوق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٣٠.

(٣) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالى، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م، دار الصحوة، ص٣٥.

متحملاً كامل المسئولية عنها أمام الله وأمام المجتمع وأمام نفسه، وعلى ذلك جرت عادة الناس «فالذى يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله، هو الذى فر به، ويقول الرائى والمخبر إن فلانًا قتل فلانًا أو ضربه أو اعتدى عليه، فنسبة الأفعال إلى من صدرت عنه من العباد مما لا يحتاج إلى بحث أو نظر»(١).

فقد خلق الله الإنسان ومنحه حرية التصرف والاختيار، ومنحه العقل ليفكر به فى عاقبة سلوكه وطريقه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وظهر بذلك ضلال وكذب من يدعى عدم المحاسبة سلبًا وإيجابًا، وكأن أعمال الإنسان عبث لا طائل منه، وبذلك يستوى صاحب المعول والبناء، ويستوى الظالم والمظلوم.

والإسلام فى ذلك يتسق مع العقل والمنطق، وانفرد بذلك عن النظم الوضعية القديمة فى تحميل المسئولية الفردية على المجموع سواء كان البيت أو القبيلة، فقرر -سبحانه وتعالى- أن الإنسان مسئول عن أعماله فقط، ولا يُسأل عما فعل غيره مهما كانت صلة قرابته به، قال تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٨]. فالكل يحمل عبء أعماله، ولن يحمل أحد

(١) الفكر السياسى للإمام محمد عبده، عبد العاطى محمد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م، ص١٦٦.

خطايا أحد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

ولكن قد يقول قائل: إنها حرية مزيفة، فالله يعلم سابقًا أى الطرق سنختار، هو منح لنا الحرية فى الاختيار، إلا أننا مجبرون على اختيار ما كتب لنا، لندور بذلك فى حلقة مفرغة!

نقول: إن الله خلق الإنسان، وهو أعلم به من نفسه، فهو يعلم السر وما هو أخفى من السر، وأنزل له الدستور الذى يسير عليه، فالصانع -ولله المثل الأعلى- الذى يصنع آلة ما يتبعها بكتيب إيضاح، الالتزام به يحافظ على سلامة الآلة، والتخلى عن تنفيذه يضر بها، والإنسان حر فى ذلك إن شاء نفذ، وإن شاء عصى، وعليه تحمل تبعات اختياره أما علم الله بما يختار الإنسان، فهو علم الصانع (الخالق) بما خلق فهو «لا يتخلف؛ لأنه علم الله الذى يستوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل، والظن بأن نجاة من نجا، وهلاك من هلك، هو أثر إكراه الله لهذا وذاك، هو ظن السوء، وما أراه إلا كفرًا»[1].

أما الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه والذى

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم الشيخ محمد الغزالى، ص٣٧.

يقول فيه المصطفى ﷺ: «**فوالله الذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(١)، فهو يفيد «شمول العلم الإلهى، ولا يقول بالجبر المطلق»(٢)، فحتى وهو يعمل بعمل أهل النار، إلا أن الله يعلم أنه سيُقوِّم مساره حتى يعمل بعمل أهل الجنة.

إذن فالخيار المطلق بيد الإنسان، وعلم الله لا ينفى حرية اختيار الإنسان أو يتعارض معه.

والله لطيف بعباده، لا يحب أن يراهم فى النار، ففعل - سبحانه وتعالى- ما من شأنه تقريبهم من الجنة، وإبعادهم عن النار، رحمة بنا ومنًّا منه وفضلاً، فوضع لنا العلامات على الطريق، نستدل بها، ونسير عليها، فأرسل إلينا الرسل مبشرين، يرغِّبون فى ثوابه ويُرهبون من عقابه سبحانه، وفى هذا لطف بنا، قال تعالى عن «التوراة»: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى فى عيسى -عليه السلام-: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال

(١) صحيح مسلم، ٤/٢٠٣٦، القدر، حديث رقم ٢٦٤٣.
(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص٣٧، بتصرف.

يصف الرسالة الجامعة الخاتمة: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. كما عبر -سبحانه وتعالى- بصيغة اسم الفاعل على هذا الذى سعى فى طريق الله، وتمسك بالحق، وجاهد يبغى الحقيقة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال يثنى على الصابرين المحتسبين: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]. وغيرها كثير من الآيات التى تقول: إن هؤلاء فعلوا وبذلوا، واستجابوا لنداء الفطرة، فاستحقوا أن يكونوا مهتدين «بصيغة اسم الفاعل».

إن إرسال الرسل لطف من الله تعالى، ولكن البعض ممن رضوا الضلالة بضاعة، وصدروا عن الماء بعد الورد، وتجاهلوا بعد العلم، وبعد أن يسر الله لهم سبل الهداية، أولئك ما يستحقون إلا العذاب، ويرزقهم الله التمادى فى باطلهم، فيحكى سبحانه عن ثمود قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، ونص الله عليهم خاصة بالهداية؛ «لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم الله بزيادة البيان والهدى، ولكنهم -من ظلمهم وشرهم- استحبوا العمى- الذى

هو الكفر والضلال -على الهدى- الذى هو العلم والإيمان»[1]، فاستحقوا الصاعقة عن جدارة، وبئست هى من جائرة.

وشبيه بهم أولئك الذين اتبعوا السراب رغم أنهم كانوا فى الماء، انساقوا وراء ظنهم بعدما جاءهم هدى ربهم، قال تعالى فى كفار مكة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

إن من يسّر الله له سبل السلام والهداية، وأقام عليه الحجج والبراهين، وأرشده إلى ما يصلحه، ثم نكص بعد كل ذلك فإن الله يزيده ضلالاً، ويرزقه بعدًا، وقوة فى الإفساد، ويمده فى الغى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]. فقد ذكر تعالى «أن من كان فى الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبًّا، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]»[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف: ٣٦].

وعلى الجانب الآخر، فإن من أخذ بأسباب الفلاح، وتمسك بالمنهج القويم، فإن الله يُيسر له سُبل الحياة الكريمة،

(١) تفسير السعدى، عبد الرحمن السعدى، الطبعة الأولى، مكتبة الإيمان بالمنصورة، بدون تاريخ، ص٨٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٢٢.

ويثبته على هذه الطريق، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

فقد أوضح الله الطريق، وبين السبيل، وفصل المنهج، فمن أخذ به فقد هداه الله، ومن أعرض عنه، فقد أضله الله، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالإنسان حر فى اختياره، وعلم الله أسبق، ولكن لا ينافى حريته.

كذلك من الإشارات على الطريق بالمعروف والنهى عن المنكر، يقوم به أهله، ينادون من شذ، ويحذرون من تمادى، ويصححون مسار من يظن أنه أحسن صنعًا، ولا يفهم من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] لا يفهم منها عدم القيام بالمعروف والنهى عن المنكر «فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[1].

وخلاصة القول: إن الله منح الإنسان الحرية ليختار، فهو حر فى اختياره، ولكن علم الله سبق إلى اختياره، وليس معنى هذا أنه مجبر على أن يختار ما اختاره الله له؛ لأنه ببساطة لا يعلم ماذا فى علم الله له.

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٢٣.

وننبه على أن الإنسان لا بد له أولاً أن يفكر، ويسعى للاختيار الأمثل، والله يوفقه ويعينه على ذلك، فالله لطيف بعباده في كل محطات حياتهم، فإذا اختار الإنسان السعادة، أعانه الله عليها، ووفقه في تحصيلها، وإذا أخطأ وحَدَا، أرسل له من ينبهه، ورزقه من يرشده، ليعود إلى الجادة، طالما أن عناده ليس هو سبب جهله، فإذا كان فإن الله يزيده ضلالاً، ويمده غيًّا.

ويجمل بنا أن نورد رأى الأستاذ «البارون كارادى فو» في هذه المسألة حيث يقول: «إن القرآن قد ألح كثيرًا على ذكر القدر، ولكن على الرغم من هذا إذا فحص الباحث بعقل هادئ وبدون تحيز فقرات هذا الكتاب المتعلقة بالقدر تبين له أنها ليست جبرية إلى الحد الذى ظنه كثير من الناس، وأنها على الرغم مما تحتويه من إرعاب من القدر ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض»[1].

ثم يفصل ذلك بقوله: «إن القدر لا يلغى الحرية الفردية، كلا، وإنما معناه أن الإله لا يجهل شيئًا مما سيكون، وأن للفرد الاختيار بين الطريقين، ولهذا لن يستند في جزائه إلى ما هو مكتوب في الكتاب السابق -اللوح المحفوظ- وإنما يستند إلى

(١) الإسلام كما يراه الأوربيون د. محمد غلاب، هدية مجلة الأزهر، المحرم، ١٤٣٠هـ، ص٦٣.

الكتاب الذى سُجلت فيه أعماله، وفى هذا برهان على أن الجزاء منوط بالعمل الفعلى، لا بالتقدير قبل الوقوع»[1].

كما يرد على الالتباس الحاصل لدى عموم الناس من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] حيث يورد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم يصرح بعد ذلك «بأن الفريق الذى عين فى كتاب القدر للجحيم ليس مؤلفًا من أشخاص عاديين سيؤخذون على غرة حتى يعترض بالظلم أو الإكراه، وإنما هو مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى، ويغمضون أعينهم عن مشاهدته، ويحولون قلوبهم عن تعقله، وكل ذلك بإرادتهم الحرة، واختيارهم البعيد عن كل تأثير، إذ ليس بين المقدر عليهم وبين سلوكهم العملى أية صلة واقعية تجدهم قسر إرادتهم إلى ما قدر عليهم»[2].

***

(١) المصدر نفسه، ص٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٥، وما بعدها.

المبحث الثاني:

ألوان الحرية

كفل الإسلام الحرية في مضمونها، وشدد على أهميتها، ووضع لها الضوابط والأطر، وعلَّم المسلمين كيف يستخدمونها، والشريعة الغراء في ذلك أيسر الطرق وأوضحها بما لا يفتح مجالاً للتأويل أو الغموض؛ نظرًا لأهمية الفهم الصحيح وخطره.

انطلق المسلمون تملأ جوانحهم الدعوة الإسلامية، وتخامر تكوينهم الحرية، أخذوا على عاتقهم القيام بالأمر، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح -رضوان الله عليهم- وتحرُّك المسلمين في ذلك ينبثق من تحمل كل منهم المسئولية كاملة؛ فكلهم الحاكم، وكلهم المحكوم، لا يألون جهدًا لتحقيق العدالة، ومساعدة الوالي والحاكم، لم يتواكلوا على أن غيرهم يحكم ويدبر، وما عليهم إلا السمع والطاعة والانصياع، بل استخدموا الحرية في نطاقها وضوابطها، لا ليخرجوا على الحاكم، وإنما ليصححوا المسار، ويساعدوه على تحقيق الأمن والرخاء، ومرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- وعمل السلف الصالح. وفيما يلي نتعرض بشيء من التفصيل

لألوان الحرية فى الإسلام، ومنهج الإسلام فى إقرارها، والغاية من وراء ذلك.

أولاً: حرية الاعتقاد:

كفل الإسلام ومنذ اليوم الأول لدعوته حرية الاعتقاد، فللمرء أن يعتنق ما يشاء من العقائد والأديان، ولكن الله لم يتركه هباءً، بل منحه العقل ليفكر ويتدبر فى الكون وفى نفسه من آيات، ولطف الله به، وأرسل له الرسل لهدايته، وليعلم بعد ذلك أنه سيحاسب على كل ما فعل.

فنرى أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد كفلا حرية العقيدة، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

إن هذه السورة رغم قصرها، لتحمل من المعانى والإيحاءات الكثير والكثير، إن الآية الأخيرة منها تقرر قاعدة ذهبية فى منهج التعامل مع الناس، ولا نقول إن ذلك كان فى فترة ضعف الإسلام، ولما قوى وأصبح ذا شوكة شن حربًا شعواء على الآخر، لا، إن ذلك كان منهجًا إسلاميًّا دائمًا، وسيرة المصطفى خير دليل على ذلك، وليس هذا مجال سردها.

قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] إن هذه

الآية لتدحض الزعم السابق؛ لأنها نزلت فى وقت قوة المسلمين، وكأن الله -تعالى- يقرع فى آذانهم أجراس العقيدة، حتى لا يستخدموا قوتهم، ويمارسوا سلطانهم فى إخضاع أحد للإسلام وهو كاره، فالإسلام لا يحتاج إلى الإكراه عليه «لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته»(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

يقول الأستاذ سيد قطب: «وفى هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد.. إن حرية الاعتقاد هى أول حقوق الإنسان التى يثبت له بها وصف إنسان. فالذى يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء»(٢).

إنها تلك القاعدة، تلح علينا من جديد، إن الخيار بيد الإنسان إن شاء أن يتخذ إلى السعادة سبيلاً، وإن شاء أن يكون للظالمين قرينًا، الذين ظلموا أنفسهم وحادوا عن الطريق، واعترضوا على رسل الله، وعاندوا واستكبروا، وسيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، ولات لا ينفع الظالمين معذرتهم.

(١) تفسير السعدى، ص ٩٦.

(٢) فى ظلال القرآن، ١/ ٢٩١.

وكان النبى ﷺ يجهد نفسه، ويجتهد فى تبليغ دعوته، وكان يحزن حزنًا شديدًا لكفر من كفر، فأنزل الله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. فالهداية بيد الله، فبيده مغاليق القلوب، وقد يسر السبل، وأنزل الكتب، أما من أوصدوا قلوبهم بأيديهم، فالخسران ربحوا، والنار فازوا، وبئس الفوز، لا تحزن يا رسول الله عليهم، هم من عاند وهم من كذب، وقد أديت ما عليك ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إن العقيدة الإسلامية قد منحت أعداءها قبل معتنقيها الحرية الكاملة، والحقوق العظيمة، وتميزت بالتسامح واليسر. إن عمار ابن ياسر حين جاء إلى النبى ﷺ يقول: هلكت يا رسول الله، قد وجد من يخفف عن كاهله العذاب، ويشفى صدره المكلوم، ويضمد جراحه الغائرة ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ لأن العقيدة إنما تكون فى القلب، حيث لا يستطيع العذاب أن يخلق، وما يضير القلب لو أعطى اللسان ما لا يملك، فكان الإذن «إن عادوا فعد».

ومن السنة المطهرة ما يدعم حرية العقيدة كذلك، فعن أبى زرعة بن سيف بن ذى يزن: قال: كتب إلىَّ رسول الله ﷺ كتابًا هذه نسخته فذكره وفيه: «ومن يكن على يهوديته أو

نصرانيته؛ فإنه لا يفتن عنها، وعليه الجزية على كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار أو قيمته من المعافر»[1].

إن المصطفى ﷺ كتب إلى الأبناء أولئك الذين آمنوا به من ملوك اليمن وكانوا تبعًا للفرس، كتب إليهم ألا يكرهوا أحدًا على تبديل دينه، رغم ما فيه من زيغ وضلال، فحتى الملك لا يستطيع أن يكره أحدًا على اعتناق دين بعينه مستخدمًا سلطانه وقوته. فالدين هو القيمة التى ينبغى أن يقتنع بها الفرد؛ لأنها ابتداء تخطط وتحدد مساره فى كل شئون الحياة.

إن أولئك الذين يدخلون الدين مكرهين، لا تنخدع بكثرتهم، فإنهم أول من يرتد وأول من يعادى المسلمين حين تظهر الفتنة، وهم أشد خطرًا على الدين من أولئك الذين كفروا ابتداء.

إن القلة المؤمنة قادرة على تحقيق العدل والرخاء للبلاد والعباد، وإن حرية الاعتقاد لهى المصفاة التى تنقى الصف المؤمن من الغثاء الذين ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

---

(١) موسوعة: حول الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى، خديجة النبراوى، دار السلام، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، المجلد الأول، ص ٤٣٣.

ومن هنا فإن الإسلام وهو فى أوج قوته وسلطانه، لم يكره أحداً على اعتناقه؛ لأن حرية الاعتقاد من أسمى ما تدعو إليه شريعتنا الغراء، ولأن الفرد لا بد أن يملأ الإيمان واليقين قلبه بحب هذه الرسالة والإخلاص لها.

ثانياً: حرية الإرادة:

تقرر كثير من النصوص الدينية الإرادة المطلقة لله، فهو القادر على كل شيء، وهو المتمتع بكامل ومطلق الإرادة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وغيرها كثير من الآيات التى تقرر أن الأمر كله بيد الله، وأن إرادته مطلقة. ولكن هل للإنسان إرادة؟ وهل هى مطلقة؟

إن العودة بالمسألة إلى التكليف يحل تلك المعضلة. إن الله خلق الإنسان، ومنحه العقل، وأرسل إليه ما يدعوه إلى الإيمان والتصديق، وجعل له الحرية فى اختيار الطريق التى يسلكها، ووعد المحسن بالمكافأة، وتوعد المسيء بالعقاب.

نقول: إن تكليف الإنسان، وجعله مسئولاً عن أعمال أمام الله، متحملاً جزاءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كل ذلك يقول بحرية إرادة الإنسان للعمل، فالإنسان لديه الإرادة التى تكفى لقيامه بعمل ما دون غيره، هذه الإرادة جعلها الله له من

ضـرورات حرية التكليـف، إذ لا تكليف بغيـر إرادة، وإلا إذا كـان هناك تكليف بغـير إرادة، فـإن الناس لا تملك من أمـرها شيئًـا، فمن كتب الله له الجنة فإنه يعمل الخـير، وليس بيده أن يتركه، ولا يستطيع أن يرتكب المعاصى، ومن كتب الله له النار فهو يرتكب المعـاصى والآثام، لا يستطيع أن يقلع عنها، وليس له أن يفـعل الخيـر. فإذا كـان هذا صحيـحًا فـما الحكمـة من الخلق، ووجود الثواب والعقاب؟!

ولكن الحق الذى نؤمن به أن للإنسان إرادة، توفر له القدرة على القـيـام بعـمل مـا، واخـتيـار الطريـق التى يرغب فى سلوكها. إنهـا إرادة مخلوقة، خلقها الله كـما خلق الإنسان، وأودعها نفسه، وجعل العـقل والمصلحة والدين والشريعة قبل ذلك، أُطرًا تتصرف فى محيـطها هذه الإرادة حسب ما يهوى الإنسان.

«إن الحرية المخلوقة صحيحة كما ينبغى أن تكون فى احتمال العقل المدرك المميز الذى يهتدى بإذن الله لما اختلفوا فيه»[1].

ثالثًا: حرية الرأى:

سبق أن قررنا أن الإسلام سبق كل النظم والقوانين الوضعية فى الاهتمام بقضايا الإنسان وتحريره، وفى ثنايا بحثنا هذا نتبين

(١) الإنسان فى القرآن الكريم، عـباس محمود العـقاد، الهيئة المصـرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٥٠.

بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، ومع كل حرف، وكل فكرة ما ألمحنا إليه سابقًا.

يخطئ من يظن، ويحيد عن الجادة من يعتقد أن الإسلام بدستوره وقواعده ألجم العقل بلجام من ذهب؛ فهو يمنع حرية الفكر وإبداء الرأى ولكن بصورة جميلة رقيقة، لا تحمل الأمر المباشر، ولكن يفهم ذلك من النظرة الكلية للأمور.

لا أدرى على أى المصادر اعتمد هؤلاء المتأولون، وأجدنى لا أملك إلا التسليم -بعد قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية- بما أولاه الإسلام للعقل، وحضه على إبداء الرأى.

فقد عاش العرب قبل الإسلام ينعمون بجهالة عقولهم، يتباهون بتقليدهم الأعمى للآباء والأجداد، هذا التقليد الذى أعمى البصر والبصيرة، وطبع على قلوبهم من أن ينظروا فى أنفسهم والكون من حولهم. من السوء أن يجهل الإنسان، والأسوأ أن يتباهى بجهله هذا، غير عابئ بأنه تنازل عما يميزه عن الحيوان والجمادات، لذلك لم يجد العرب غضاضة من عذرهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، و﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، وقول أبى طالب عم المصطفى ﷺ بعدما استبان له نور الحق،

وبعدما قدّم للإسلام الحماية والنصرة -وهو يعانى ألم السكرات «بل على ملة عبد المطلب».

ولم يكن أهل الكتاب بأحسن حالاً من أولئك العرب، فقد استأثر الأحبار والكهان وحدهم بدراسة ومعرفة الكتاب المقدس، ومنعوا غيرهم من دراسته وتلاوته إلا بما يسمحون به من نصوص لا يكاد القارئ يعى منها شيئًا، ليقول الله فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ونعى -سبحانه وتعالى- أولئك الأحبار والكهان الذين حملوا ماديات على كاهلهم، ولم يحملوا معنى فى قلوبهم، ونعتهم بأقبح النعوت جزاء تكذيبهم وظلمهم(١).

حتى جاء النور ليبدد ظلمات الجهل، ويهدم صنم التقليد، ويزيل الغشاوة عن القلوب والعقول. جاء الإسلام ليضع الأمور فى نصابها، وليعيد للرأى مكانته، ويمنح له أهميته، فالإسلام يعد «حرية الرأى والتعبير أساس جميع الحريات»(٢). وبعد أن أقر الإسلام حرية الرأى، ووضعها فى نصابها، ولعلمه -سبحانه وتعالى- أن الأهواء لتختلف، والآراء

(١) الجمعة: ٥.

(٢) حرية الرأى الواقع والضوابط، سالم البهنساوى، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ١٢.

تتشعب، فقد وضع الإسلام أُطرًا وقواعد ينبغى مراعاتها حتى يصل المسلمون إلى الرأى السديد بإذن الله.

فقد منح الله العقل للإنسان، فبه يؤمن، وبه يعتقد، وبه يعلم ما يصلحه وما يفسده، وبه يستطيع اكتساب الخبرات والمهارات، وهو أداة التفكير، إلا أنه لا يستطيع وحده الوصول إلى الرأى السديد.

لذلك حض القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على التفكر والتدبر فى ذات الإنسان وفى خلق الله من حولنا. إن التدبر والتفكر فى هذا الكون ليفتح للإنسان مغاليق العلوم والمسائل، ومن خلاله يصل الإنسان إلى دقائق صنع الله وعجائب قدرته، فيعلم أنه قادر مقدِّر، ومن خلال التفكر وصل الإنسان -بشكل عام- إلى اكتشاف قوانين العلوم كالجاذبية، وتعاقب الليل والنهار، ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. وخير دليل على هذا الحض كثرة الآيات التى تنتهى بقوله «يعقلون» و«يتذكرون» و«يتفكرون»، فى دعوة أكيدة لاستخدام هذا العقل كما ينبغى، خير من أن يكون سيفًا نذبح به أنفسنا. إلا أن التدبر رغم قيمته وأهميته لا يستطيع وحده الوصول للرأى السديد.

أضف إلى ما سبق من قواعد وأُطُر اهتمام الإسلام بالعلم، ورفعه من شأن العلماء؛ فحض على طلب العلم وجعله فريضة

شرعية كالصلاة، وحض على طلب الحكمة أينما كانت، ورفع الذين أوتوا العلم درجات، فالعقل والعلم يشكلان جبهة قوية لمواجهة تحديات وتطورات الحياة المختلفة، ولعل «اقرأ» و«ن والقلم وما يسطرون» خير دليل على قيمة العلم فى الإسلام، فقد حض الله -سبحانه وتعالى- عليه فى أول ما نزل من القرآن رغم كونه ﷺ أميًّا، ويعزز هذا الاهتمام وجود سورة كاملة باسم القلم. ومع ذلك، ورغم قيمة العلم وعظم خطره إلا أنه لا يستطيع وحده الوصول للرأى السديد. كل ما سبق منفردًا لا يصل إلى الرأى الصواب فى كل ما عنّ للمسلمين من أمور. إلا أن النظرة الكلية -وبها فقط- هى الحل الأمثل لتلك المعضلة.

إن تحرير العقل من التقليد والجمود، وممارسة التدبر والتفكر فيما حولنا، والسعى دائمًا وأبدًا إلى التعلم واكتساب الخبرات والمهارات والخبرات، كل هذه الأمور مجتمعة تستطيع الوصول بسفينة الأمة إلى بر الأمان والرأى الصواب، أو الأكثر قربًا للحق، ولا فضل لجانب على جانب، ولا فلاح لعنصر دون البقية.

وبعد أن نجح الإسلام فى غرس هذه القيم وتلك المفاهيم فى نفوس معتنقيه، جاء الأمر واضحًا ومباشرًا بضرورة إبداء الرأى فى الأمور المختلفة، حتى إن المصطفى ﷺ ومنذ بداية الدعوة حرص على تمييز سلطته الدينية والتى تأخذ دون تحريف

أو مناقشة أو تأويل، وبين سلطته السياسية والتى تقبل الأخذ والرد والصحة والخطأ، وما خروج المسلمين فى أُحد، وعقد الحديبية إلا خير دليل على تلك الحرية المكفولة للمسلمين فى إبداء الرأى. وكثيراً ما خالف قائد سلاح المهندسين فى الجيش الإسلامى الحباب بن المنذر رأى الرسول ﷺ فى اختيار أماكن التمركز واللقاء، بأسلوب يفوح احتراماً والتزاماً، ويقبل النبى ﷺ بأسلوب يقطر استجابة وحباً.

وبعد أن اطمأن النبى ﷺ إلى التزام أصحابه بتلك الأُطُر وهذه الضوابط، ومراعاة آداب إبداء الرأى والنصيحة، جاء الأمر واضحاً ومباشراً بقول الحق مهما كانت سلطة المخطئ، ومهما كانت الفتاوى مضللة، ومهما انحرف العلماء عن الجادة وأصبح الحق غريباً؛ «فالساكت عن الحق شيطان أخرس»، وحرص النبى ﷺ على أن تكون المكافأة سخية، فقال: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»(١).

كذلك حرص ﷺ على إبداء صحابته لآرائهم، والأخذ بما اتفقوا عليه؛ ليكون ذلك تدريباً لهم على هذا النهج، وحرص أيضاً على إقرار مبادئ الشورى وقواعدها؛ لأنه «**لا تجتمع أمتى على ضلالة**»(٢).

(١) المستدرك على الصحيحين، ٣/٢١٦.

(٢) أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب، ١/٣١٦.

وبعد، فإننا نضع هذه النصوص وتلك المبادئ فى ميزان العلم والمعرفة؛ لنرى أهى أكثر ملائمة وأيسر تطبيقًا أم تلك النظم والقوانين الوضعية؟!

رابعًا: حرية التملك:

من القضايا المحيرة الشائكة قديمًا وحديثًا، وظهرت الكثير من الأنظمة والأيدلوجيات التى تعالجها، منها ما يعلى من قيمة المجتمع ككل دون اعتبار الفرد، ومنها ما يعطى الأولوية والتميز للفرد ولا عزاء للمجتمع. إنه الإفراط والتفريط، بين مجتمع تتنافس فيه شركات استثمارية كثيرة فى مساحة لا تسعهم، فيزيد العرض على الطلب، وتقع الكارثة وتعم الفوضى، وبين مجتمع يقيد حركة الاستثمار، فيزيد الطلب على العرض، حاول هذا النظام تلافى عيوب النظام السابق فوقع فى خطأ أفدح، وانتهت الكارثة بهذه المأساة، أو انتهت المأساة بتلك الكارثة.

ومن ثم، وبعد إعلان فشل كلا النظامين تخبط الجميع دون وعى، الكل يبحث عن علاج يبحث عن منقذ ينتشل الاقتصاد العالمى من الغرق. كان من بين الباحثين رجل قُتِل بحثًا، ولا يدرى أنه يملك الدواء بين يديه، إنه نحن.

إذا عدنا إلى تراثنا لوجدنا الحل واضحًا جليًا، إنه النظام الإسلامى الذى زاوج بين النظامين، وانتهج طريق الوسطية

منهجًا، ونظرة على نظام الملكية فى الإسلام نرى ذلك واضحًا.

فالمتأمل للقرآن الكريم يجد أنه ينسب المال تارة إلى الله، فيقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً﴾ [المدثر: ١٢]، وتارة إلى الناس فيقول: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. إن النظرة الأولى تقول بالتعارض بين الآيات، ولكن الأمر غير ذلك؛ فالمال مال الله، هو خلقه وقسمه، ورزقه للإنسان. والمال مال الإنسان، هو كسبه، وهو فيه مستخلف، يعلم كيف يجمعه، وكيف يصرفه. ولا يهتم الإسلام بالتفاصيل بقدر ما يهتم بالضوابط والأطر فى هذه القضية بالذات، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، مما يوجب وضع الأسس والضوابط، وترك الوسائل والتفاصيل تخضع لمتغيرات الزمان والمكان والحضارات.

ففى البداية، أقرت نصوص الشريعة الغراء الملكية فى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣]، وقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، وقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل

عمران: ١٨٦]، وقال: ﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨]، هذه الآيات -وغيرها كثير مما ينسب فيه المال إلى الإنسان- تشير بوضوح إلى حرية التملك التى أقرها الإسلام.

ولم تكن السنة النبوية المطهرة عن ذلك ببعيد، فقال النبى ﷺ يدعم الملكية فى الإسلام: «**كل سارحة ورائحة على قوم حرام على غيرهم**»(١)، وقال أيضًا: «**إذا أسلم الرجل فهو أحق بأرضه وماله**»(٢)، من هنا أقر الإسلام -ومنذ زمن بعيد- الملكية، واعترف بحق الأفراد فى التملك.

والإسلام فى ذلك ينتهج المنهج الوسطى، فهو «يقر حق التملك الفردى على أن يبقى منسجمًا مع مصلحة الجماعة، محققًا لأهدافها، متفقًا مع نظرة الإسلام الاقتصادية التى تقوم على تحقيق مصلحة الفرد والمجموع، وهكذا نستطيع القول بأن الملكية الخاصة فى الإسلام تؤدى وظيفة اجتماعية»(٣). ونظرة الإسلام فى ذلك تتفق مع طبيعة النفس البشرية التى تحب المال، وتسعى للتملك، ولم لا والذى وضع المنهج هو الله -سبحانه وتعالى- العالم ببواطن النفس، يعلم السر وأخفى.

(١) الطبرانى فى الكبير، ٨/ ٢٠٧.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣١٠.

(٣) معالم الثقافة الإسلامية، د. عبد الكريم عثمان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشر، ١٩٨٥، ص ٢٣٧.

ثم بعد ذلك، وبعد أن أقر الإسلام الملكية، ولعلمه - سبحانه وتعالى- أن الأهواء مختلفة متشعبة؛ لذلك فقد وضع -سبحانه- قواعد وأُطرًا لهذه الملكية، فلا غش، ولا ربا، ولا تغرير، ولا استغلال حاجة الناس، ولا احتكار لقوت المسلمين، فقد قال عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- سمعت النبى ﷺ يقول: «**من احتكر طعامًا على المسلمين ضربه الله بالإفلاس أو الجذام**»(١)، كذلك ينبغى عليه تملكه بطريق مشروعة، وأن يكون وسطيًّا فلا ينفق بإسراف، ولا يقبض يديه بالبخل، ويجب عليه إخراج زكاة ماله، الذى هو حق الله فيه.

وهكذا فقد كفل الإسلام الملكية الفردية وأقرها، ولم يغفل فى ذلك دور الملكية الجماعية وأهميتها، ووضع القواعد والأطر لهذه الملكية؛ حتى لا تكون ألعوبة تتحكم فيها الميول والأهواء، وتتنازعها الأمزجة والاتجاهات، والالتفاف حول القوانين، وتأويل النصوص بما يتفق وشرههم للمال والسلطة.

تلك هى الملكية فى إسلامنا الحنيف، ويبقى أن تخرج قواعدها وأطرها إلى حيز التنفيذ، لتخرج إلى النور بما تحمله من إصلاح ونمو لا يتعرض للنكبات والأزمات.

خامسًا: حرية التعليم:

كثيرة هى تلك القضايا التى تمر دون مراجعة وتمحيص كافٍ

(١) فتح البارى، ابن حجر، ٤/٣٤٨.

حتى تغدو من المسلمات التى نبنى عليها القوانين والنظريات، وكثيراً ما نعمم هذه القضايا وتلك النظريات. إننا بحاجة - حقّاً- لمراجعة كل مناهج البحث، وكل النظريات المستنبطة المبنية على هذه المناهج.

تخيل أن رجلاً يجلس فى مكتبه المريح، ينعم بمكيف الهواء النقى، يمسك قلمه ويحكم على حرب ضروس تدور رحاها فى بقعة ملتهبة من الأرض، وتخيل رجلاً يورد نصًّا يستشهد به فى قضية ما دون أن يحترم عقولنا ويورد السياق الذى ورد فيه هذا النص، فالسياق له دور كبير فى الوقوف على دلالات النص، وتفسير معناه؛ فقد قال الله -سبحانه وتعالى- على لسان نبيه فى أهل بدر: «اعملوا ما شئتم»، وقال تعالى للمعرضين ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. إن الذى يفصل بين كلتا الجملتين هو السياق الذى وردتا فيه، ففى الحديث سياق مدح وعطاء، وفى الآية سياق تهكم وسخرية.

هذه الكلمات آثرنا أن نبدأ بها؛ لتكون الصيحة التى تفيق من يقول إن التعليم فى الإسلام كان دينيًّا فحسب، لنقول - أولاً وقبل كل شىء- إن الإسلام حرص على حض المسلمين وتشجيعهم على التعلم، فكان أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، و﴿نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]. إن دينًا تكون أولى تعاليمه الحض على العلم

والتعلم لهو دين يدعو إلى التصديق بالقلب والعقل، لا يقبل إيمانًا ظاهرًا هشًا. إن دينًا تكون هذه أولى تعاليمه لهو دين العلم والعلماء، وليس بدين لاهوتي، إن دينًا تكون هذه أولى تعاليمه فهذا منهجه، وهذه مبادئه.

وامتدادًا لهذه التعاليم قصر الله -سبحانه وتعالى- الخوف منه على العلماء، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، بل إنه -سبحانه وتعالى- ليضع المؤمنين مع الذين أوتوا العلم في ميزان واحد، وكفة واحدة، فيرفعهم درجات كثيرة، فيقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وليس هذا موضع استغراب في ديننا، فالدين والعلم شيء واحد، والمؤمنون هم العلماء، وما العلماء إلا المؤمنون.

وامتدادًا لذلك قال النبي ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب...**»[1]، بل إن موت الإنسان ليوقف تعداد حسناته إلا ثلاث، منها: «**أو علم ينتفع به**». بل ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين فرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، ليرتفع بذلك إلى درجة الصلاة والزكاة وغيرها من الفرائض.

وإنك لتعجب أكثر حين تعلم أن هذا الاهتمام لم يكن في

(١) أخلاق العلماء، الآجري، ص ١٠.

بيئة العلم والمعرفة، ولم يكن فى زمن العلماء فيه يحكمون ويسودون على من عداهم، بل كان هذا الاهتمام فى مجتمع الجهل سمته، والضلال شعاره.

جاء الإسلام وعدد محدود من العرب يجيدون القراءة والكتابة -بل كان أكثرهم يعتمدون على الحفظ والرواية- فشجع المسلمين على العلم وطلبه، واتخذ كل الوسائل الممكنة فى ذلك، حتى كان فداء أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وكان زيد بن ثابت كاتب وحى النبى ﷺ من هؤلاء المتعلمين، وبذلك أقر الإسلام التعليم ودعا إليه على ما كان يعانيه المجتمع آنذاك من الجهل والتعصب.

ولم يكن التعليم فى الإسلام دينيًّا فحسب، وإن كان هذا هو أساسه، أن ينطلق من مبدأ دينى، وحين قال المصطفى ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[1]، لم يكن يقصد علمًا بعينه، وإنما أراد التعميم. وقد قسم الفقهاء العلم إلى قسمين:

علم دينى: وهو كل العلوم التى تتصل بالدين الإسلامى من علوم القرآن والحديث وغيرها.

علم دنيوى: وهى تلك العلوم التى تتصل بالحياة العملية كالرياضيات والفلك والفلسفة والطب وغيرها.

(١) سنن ابن ماجة، ١/ ٢٦٩.

إلا أننى أميل إلى تأكيـد التواصل بين العلوم، فالكل علم. إن الرياضـيات وعلوم القـرآن علم واحـد، انطلاقنا إليهـا من تشجيع الإسلام، وغايتنا فيها الوصول إلى الحقيقة، والتعبد بها إلى الله. إن ديننا الحنيف يقر أن المشتـغل بالكيمياء أو الطب أو غـيره من العلوم هو مـتـعبـد بهـا لله -عز وجل- طالما يبـغى مرضاته، أرأيت شـريعة تقرر أن المشتغل بالعلم يمـارس عبادة جليلة يثاب عليها من الله -عز وجل- سوى الإسلام؟!

كذلك هناك من المعلوم ما يكون تعلمه واجبًا كالعلم بالقرآن والحديث ومـا يتصل بالشـريعة الإسـلامـيـة، لا إلى حد الإلمام بها، وإنما إلى حد المعرفـة والعلم. ومن المعلوم ما يكون تعلمه فـرض كفـاية أى: ليس على كل المسلمـين أن يتعلمـوه، وإنما واجب أن يتعلمـه بعضـهم، فيسـقط عن الكل، بعكس العلم الواجب تعلمـه على كل الناس وهو العلم بالدين، ومن أمـثلة علوم فـروض الكفـايات الطب والهندسـة والفلسـفـة والفلك وغيرها من العلوم الدنيوية.

يضـاف إلى ذلك أيضًا علوم الحـرف والمهن، فيـجب على المسلمـين أن يكـون من بينهم الحـائك والنجـار والسـائق والكهربـائى وحتى الإسكافى، وأقول: هـذا واجب إذا قام به البعض يسـقط عن الكل، أما إذا كان فى مدينة ليس بـهـا نجار مثلاً، فإن هذه المدينة آثمة كلها حتى يكون فيهم نجار.

وحين نقول إنها من فروض الكفايات لا نهبط بها إلى مرتبة دونية، وإنما نضع لها حكمًا وتوصيفًا إلهيًّا، فالطعام والشراب من المباحات رغم أن عليهما عماد الحياة وقوام العيش.

إذن فالإسلام يحتم على الإنسان أن يكون له مهنة يمتهنها، وحرفة يتعلمها؛ حتى يكون منا الصانع والفلاح وسائر أنواع الحرف التى نحتاج إليها. فالإنسان حر فى أن يختار الثغر الذى يقف عليه، ليكون كفئًا وحارسًا على هذا الثغر، لتصل سفينة المجتمع إلى بر الأمان.

وأخيرًا يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] كذلك لا يصح فى ديننا أن ينفر الناس جميعًا للقتال، ولا أن يقعدوا جميعًا، فتنفر فئة وتقعد أخرى تعلم الناس، فلا يجوز أن يصبح المجتمع كله أطباء، ولا يمكن ألا يكون فى المجتمع طبيب واحد. هذه هى حرية التعليم فى ديننا الحنيف، فانظر أى الثغور تحب أن تكون عليه فأنشط إليه، وانظر هل ترى ذلك فى شريعة أخرى؟!

فعلى المسلمين أن «يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفى وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة

جميعهم، وغاية ما يقصدون قصداً واحداً، هو قيام مصلحة دينهم ودنياهم»[1].

سادساً: حرية العمل:

حض الإسلام على العمل كثيراً فى نصوصه القرآنية والنبوية على حد سواء، وعرف له أهميته فى بناء المجتمع واستقامته، فالإسلام ليس ديناً لاهوتياً، عبادة وفقط، وإنما هو عمل وعبادة، ليس هو قسمين، وإنما كل لا يتجزأ؛ فالعمل إذا أريد به وجه الله، والتعفف عن سؤال الناس فهو عبادة، والعبادة التى تحض الإنسان على الأخلاق الفاضلة، واكتساب الرزق فهى عبادة حقة.

وهناك نصوص كثيرة تحض على العمل وتدعو إليه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال عن داود -عليه السلام-: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] هذه الآيات وغيرها لا تأصيل للعمل فى الإسلام وحسب، بل تبين كذلك أن الله يسر السبل للإنسان ليعمل؛ فجعل النهار مبصراً للعمل، والليل عتمة للراحة، وهيأ الأرض ووضع فيها المعادن

(١) تفسير السعدى، ٣٥٥.

وسائر ما يحتاج الإنسان إليه فى العمل، وجعلها بساطًا ذلولاً للإنسان ليعمرها، ويخلف عليها بالعمل الصالح.

كما أنه -سبحانه وتعالى- فى كثير من الآيات يقول: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، نحن بحاجة ماسة لتوسيع بقعة الدلالة النصية، فالعمل المقترن بالإيمان هو عموم العمل الصالح الذى يبتغى به الإنسان وجه الله، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فطالما آمن الإنسان بربه، واعتقد بألوهيته ووحدانيته، ونزهه عن الشبه، ومارس العمل -دنيويًا أو أخرويًا- فقد استحق ثناء الله عليه.

كذلك فكل الأنبياء كانوا يعملون، ولم يعتمد أحدهم على رسالته، ولم يترفع أحدهم عن العمل، وهذا دأب كل الكائنات؛ فالطير «**تغدوا خماصًا وتروح بطانًا**»، والنمل يعمل ويجد ويجتهد ويدخر حتى لا يكد فى الشتاء، فالكل يعمل ويجتهد، وهذا ما فطر الله عليه الناس وسائر الكائنات.

ولم يكن القرآن وحده الذى حث على العمل ودعا إليه، بل عضدته السنة فى ذلك، ولم تدع إلى العمل فحسب بل مدحت العاملين وكرمتهم، فقال المصطفى ﷺ فى يد خشنة من أثر العمل: «**هذه يد يحبها الله ورسوله**»، لم تكتف السنة بهذا التكريم والإقرار، بل دعت إلى إتقان العمل، فقال النبى ﷺ:

«**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1]. كذلك حذرت السنة من البطالة، وحاربت البطالين؛ لما لهذا الفعل المشين من خطورة على الفرد والمجتمع، فقال ﷺ: «**لأن يأخذ أحدك حبله على ظهره فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**».

إن البطالة بؤرة سرطانية تنهش فى جسد الأمة النابض، تمص دمه، وتستنزف خيراته، وتعطل مسيرة التنمية والتقدم، فالإسلام يمنع التسول والبطالة، ويدعو إلى الجد والعمل. وكان هذا دأب الصحابة -رضوان الله عليهم- ومقياسهم، فيقول عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-: إنى لأرى الشاب فيعجبنى فأسأل: هل له من كسب؟ فيقال: لا، فيسقط من عينى، فهذا مقياس هؤلاء الرجال العاملين، وكان يقول: لا أحب أن أرى الرجل سبهللاً لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة.

بل ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين جعل السعى على الرزق جهاداً فى سبيل الله، ومكفراً للذنوب والآثام، فقال النبى ﷺ: «**من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة**» وقال أيضًا: «**من سعى على عياله من حل فهو كالمجاهد فى سبيل الله، ومن طلب الدنيا فى عفاف كان فى درجة الشهداء**».

من هنا فقد أقر الإسلام العمل ودعا إليه، ووضع القواعد والضوابط والأطر التى ينبغى أن يسير عليها الذى يعمل

(١) شعب الإيمان، البيهقى، ٤/ ٣٣٤.

ويتجر، فلا عمل فى معصية الله أو حرام، أو فساد فى الأرض وترويع الآمنين. ولا غش ولا تغرير ولا احتكار لأقوات المسلمين باسم العمل، كما يلتزم البائع بالإفصاح عن عيوب سلعته للمشترى.

فالإسلام جعل الحرية كاملة فى ممارسة الأعمال، فكل يختار ما يرغب فيه، ولم يُفصّل الإسلام فى كل صغيرة وكبيرة فى العمل، وإنما وضع القواعد والضوابط والأطر التى تجب مراعاتها فى ممارسة العمل، ووعد الملتزم بها بالخير الجزيل، والنعيم المقيم، وتوعد القاسط المتجاوز بالعذاب الأليم والخزى المبين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣] وليجعل الإنسان من نفسه رقيبًا على نفسه، ويراعى الله فى شئونه كلها، ويتقن عمله؛ فبالعمل يصل الإنسان إلى أرفع الدرجات، وبالعمل تنهض سفينة الأمة من جديد، وبالعمل نبنى عزنا وكرامتنا، وبالعمل ننال رضا الله وثوابه. وما تأخرنا إلا حين تواكلنا، وظهر التهاون فى أداء العمل، فخرج أجوف ناقصًا مشوهًا، وصرنا فى ذيل الناس والأمم.

فالمسلم له الحرية فى ممارسة العمل الشريف، ولكن يجب أن يكون ملتزمًا بالإطار والضوابط فهى لن تضر؛ لأن الله هو الذى وضعها، وهو أعلم ما يصلحنا وما يفسدنا.

سابعًا: حرية المرأة:

من القضايا التى كانت ومـا زالت وسوف تبقى محل جدل ونقاش على مـستوى واسع قـضية المرأة فى الإسـلام، البعض يرى أنهـا -مع تعـاليـمه- مـهـانة، والبـعض يرى أنهـا- مع تعاليمه- مصونة مكرمة، وما التعاليم إلا حفظ لهذا الحق وهذه الحرية، وبين هذا وذاك تحار العقـول والأفكار، ويحتدم الجدل والنقاش إلى حد بعيد.

لا أدرى على أى المصـادر اعتـمد من قـالوا بإهانة المرأة فى الإسلام، ومـا دليلهم على تلك الفرية العظيـمة، إلا أن تكون إهانة فى لغتهم تقابل تكريمًـا فى لغتنا، وإلا كان الحديث عن ذلك من قبيل «رمتنى بدائلها وانسلت». وقبل الخوض والبحث فى مـصادر الـدين الإسلامى والتـاريخ، أحب أن أقـدم ذلك بلمحة عن وضع المـرأة قبل الإسلام فى الثقافـات والحضارات المختلفة.

إن المرأة لم تكن ذلك الإنسـان الذى يحـيا شـريكًا فى هذا العـالم، شـريـكًا فى الحلم، شـريكًا فى الحـب، شـريكًا فى الأسرة، «فلو نظرنا إلى المرأة قبل الإسلام، لوجدنا أن اليهودية المحرفـة تعتـبر حـواء ومن ثم المرأة عـمومًـا سببًا فى شـقاء الإنسانـية؛ وذلك لأنها أخـرجت آدم من الجنة -فى زعـمهم- وعرضت الجنس البشرى للتعب والشقاء؛ لذا نجد أن المرأة عند

اليهود لا ترث إذا كان لها أخ ذكر. وقد اقتبست المسيحية المحرفة هذه النظرة عند اليهود، فنظرت إلى المرأة باحتقار، حتى إن المجتمعات المسيحية حتى نهاية القرون الوسطى كانت تبحث فى إنسانية المرأة، إذ لم يكن هذا المبدأ قد تقرر نهائيًا بعد. أما البرهمية فتعتبر الابتعاد عن المرأة شرطًا لدخول الجنة، وتنظر إلى المرأة على أنها مخلوق دنس، لا يستحق أن ينال شيئًا من الحقوق؛ لذا فقد كان عليها أن تحرق نفسها إذا مات زوجها. وقد وجد الاستعمار البريطانى فى الهند صعوبة كبيرة فى القضاء على هذه العادة. وقد كانت أهلية المرأة ناقصة حسب القانون الرومانى، فقد كانت الأنوثة من أسباب الحجر، تمامًا كالصغر والجنون»[1].

إن هذا الكلام يحير اللب، ويجعلنا نتساءل: أى المناهج والنظريات جعلت مثل هذا الكلام ممكنًا؟!

وكيف يتسنى لعاقل أن يقول أو يقرر هذا؟!

كيف يمكن لمبصر أن يعصف هكذا بالشريك الأساسى فى المجتمع ويبعد عن الإنسان الإنسانية؟!

إنها لم تكن عقولاً، إنها نعيم الجهل، وجهل النعيم. لا شك أن نظرة اليهود والنصارى هذه لم تكن نظرة الدين ألبتة، إنها تبعد عن العقل والمنطق فضلاً عن أنها تتنافى مع الإنسانية.

(١) معالم الثقافة الإسلامية، ص ٢٧١ وما بعدها.

والحق يقال: إن الخلاف حول إنسانية المرأة قد حسم أخيرًا بكونها إنسانًا، ولا عزاء للمنطق. أما نظرة البرهمية فلا تحتاج إلى نظر، فهى ليست بتعاليم مطلقًا، وإنما هى خيال شحاذ يتسول الفكر ولا يتحلى به.

ألم يفكر هؤلاء أنه لولا المرأة لما استمر المجتمع؟!

ألم يفكر هؤلاء أن المرأة أمًا وأختًا وزوجة وابنة؟

ألم يفكر هؤلاء أن المرأة شريك فى هذه الحياة؟!

ألم يفكر هؤلاء فيما عسى أن تكون المرأة خلقت؟!

أقول: إنهم لم يفكروا؛ لأنهم وببساطة لا يعرفون كيف يفكرون، ولا يملكون ألبتة العقل الذى يفكر به الأسوياء. ألم يفكر هؤلاء أن هذا الإنسان لا بد لهم أن يتزوجوه، وهم فى حاجة إليه؟!

نعم إنهم فكروا ويا ليتهم لم يفكروا، إن «القدماء المصريين كانوا يجيزون أن يتزوج الرجل أمه وابنته وأخته... وكان أهل أثينا وإسبرطة يسمحون بتزوج الأخت غير الشقيقة، أما الأخت الشقيقة فكانوا يحرمون زواجها، وكانوا يترددون فى زواج بنت العم»[1].

(١) عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشى، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، ٢/٢٣٣.

هذا فى الزواج والعلاقات الاجتماعية ليؤكد -بما لا يدع مجالاً للشك- أن العالم كان يتخبط فى ظلمات جهله، وكانوا فى أشد الحاجة لدليل يقودهم عبر صحراء اللاعقل إلى جنة التفكير والمنهج القويم. إن من يبحثون زواج الأخت غير الشقيقة، ويترددون فى زواج بنت العم، لا يعرفون -بالتأكيد- من هى الأخت، وما تعنى بنت العم، وما درجات القرابة.

أما المجتمع الجاهلى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فلم يكن وضع المرأة فيه بأحسن حالاً من أولئك المتخبطين. كانت المرأة فى المجتمع الجاهلى تعنى الفقر والعار؛ لذا فقد كان الدفن حيًّا -فى سابقة من نوعها خلت من كل معانى الإنسانية والعقل- هو الحل المعضلة؛ حلاً لوجودها، ومعضلة للمجتمع، ورغم أن وأد البنات لم يكن سائدًا على نطاق واسع، إلا أن مجرد وجوده وصمة عار على جبين هذه الحياة.

كذلك ونتيجة لحياة القبيلة، فقد كثرت الحروب والغارات على بعضهم البعض، وكانت تقوم لأتفه الأسباب، فهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

فى النائبات على ما قال برهانًا

فاستحر القتل بين الرجال، وكثر السبى فى النساء، فكانت تسبى لتصبح خادمة ليس لها من الحقوق شىء، ويكفى الإنعام

عليها بنعمة الموت التى تحياها. وغير ذلك إذا عاشت المرأة، وكانت ذا حظ عظيم، ولم تقع فى الأسر، وتزوجت ومات عنها زوجها، فإنها لا ترث، فليس لها شىء، ليس هذا فحسب، بل إنها تصير ضمن الممتلكات التى تركها الزوج الراحل إلى الجحيم، لتصبح إرثًا يتداوله الأبناء والإخوة، وكأنها والحيوان سواء. هذا فضلاً عن حرية الرجل فى أن يتزوج ما يشاء من النساء دون الرجوع إلى أزواجه، فكانوا يتزوجون بلا حساب، متنازلين بذلك عن أهم ما يميزهم... إنسانيتهم.

نحن هنا وبعقلية القرن الحادى والعشرين لا نصدق حدوث ذلك، نقرأ ذلك وكأننا نتابع أسطورة من أساطير ألف ليلة وليلة، أو مغامرة من مغامرات «أليس فى بلاد العجائب»، ولكن الطامة الكبرى للإنسانية أن ذلك كان واقعًا مريرًا.

فى هذه الظروف، وتلك الأوضاع ظهرت عقيدة النور إلى هذا المجتمع المهلهل الأوصال، المفكك الروابط. وإذا أردنا الإنصاف، فعلينا أن نحكم على الإسلام -ليس بعقول أهل القرن الحادى والعشرين- بل بما كان عليه المجتمع آنذاك، وبما صار إليه هذا المجتمع بعد الإسلام، عندها -فقط- ترى كم كان الإسلام عظيمًا رحمة، رفيقًا حكمًا. ولنتابع عن كثب غمار هذه الحرب الضروس بين إنسانية الإسلام فى تحرير المرأة، وهمجية التخبط فى ضلال الجهل.

اتخذ الإسلام وسائل عدة فى العمل على تحرير المرأة ورفع مكانتها، وحرص منذ فجر الدعوة على أن تنال حريتها كاملة، فينزل القرآن فى كثير من آياته ليؤكد أن: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فالمرأة كالرجل، وعلى هذا جاء الخطاب القرآنى، وما جاء منه مباشرة للرجل كان على سبيل التغليب فحسب؛ فالإنسان -رجل أو امرأة- روح وجسد، الروح واحدة وعليها تقع التكاليف، وهى التى تنعم بالجنة، أو تشقى فى النار، والجسد مختلف؛ لحكمة الله فى استمرار النوع. فالقرآن يؤكد على المساواة أمام التكاليف الشرعية والثواب الجزيل، فهذه النصوص وغيرها تعيد للمرأة مكانتها، وترد إليها حريتها، وتطالبها بالعمل الدءوب

والسعى الحثيث للفوز بالجنة والنجاة من النار، وتضع على كاهلها القيام بأعباء تلك الحرية.

وبناء على هذه النصوص القرآنية، قررت السنة المبدأ الإنسانى الذى يستحق أن يكتب بحروف من نور على جبين الزمان وفى ذاكرة التاريخ «النساء شقائق الرجال». ونظرًا لأن المرأة جزء لا يتجزأ من المجتمع الإسلامى، فقد كان لزامًا عليها أن تساهم بشكل فعّال فى صنع هذه الحضارة، والدفاع عن هذا الدين، فكانت تخرج للصلاة فى المسجد، تتلقى العلم عن رسول الله ﷺ، وكان شرطًا من شروط صحة عقد الزواج أن تستأذن وتوافق على هذا الزواج، وجعل لها الحق فى التصرف فى المال، وكانت تمارس حقها فى الدفاع عن الدين، وتخرج فى الحرب، تداوى الجرحى، وتسقى الماء، بل وتدافع عن رسول الله ﷺ، وما نسينا أم سليم ونسيبة بنت كعب -رضى الله عنهما- ودورهما فى حماية النبى ﷺ يوم أحد، ثبتتا حين تفرق الأصحاب. هذا الحق، وتلك الحرية، وذاك التكريم امتد إلى «أجرنا من أجرت يا أم هانئ» ليكون إكليلاً من أكاليل الغار على جبين المرأة التى لم تكن إنسانًا حتى عهد قريب، وكأنها مع الإسلام ولدت من جديد.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، فالمرأة فى الإسلام ليست نصف المجتمع كما يتشدقون، بل هى المجتمع كله، لقد وضع الإسلام المرأة فى كفة، ورجال الأرض فى أخرى. وضع

الإسلام المرأة على ثغر لو اجتمع أهل الأرض على القيام به وحمايته ما استطاعوا، إنه ثغر البيت والتربية والمدرسة التى تخرج العظماء فى هذا العالم. إنه لا يقل خطرًا على مجالات الحياة الأخرى، بل إنه الأخطر، لأنه المنبع الذى تقتات عليه الحياة، فإذا فسد المنبع وتلوث مات الناس عطشًا وشقاوة وسمًّا.

قامت المرأة بالدور على أكمل وجه، ولم تكتفِ بموقف المتلقى لهذا الإنعام ساكنًا، وإنما كن مبادرات، لهن دور ريادى، وقد حفظ لنا التاريخ رائعة مدهشة من نساء كان لهن الدور الفعال فى مساندة هذا الدين، فهذه السيدة خديجة التى واجهت الموقف، وتصدت منفردة لهذا السيل الجارف، أعطت النبى حين منعه الناس، وآوته حين طرده الناس، وواسته بمالها حين حرمه الناس، فكانت خير معين فى هذا الطريق، فاستحقت قصرًا من قصب لا ضجر فيه ولا نصب.

وتلك هى أم سلمة التى ضربت أروع النماذج فى التضحية والفداء مع زوجها أبى سلمة، حتى كافأها الله -عز وجل- بالمصطفى ﷺ زوجًا، وجاء دورها الذى لن ينساه التاريخ حين أنقذت الموقف يوم الحديبية، فأشارت على الرسول ﷺ أن يبدأ بنفسه أولاً فيحلق، فإذا رآه الناس امتثلوا، وقد كان، ورب رأى خير من ألف سيف.

وتلك هى الشابة الواعية ذاكرة الأمة، وحافظة التراث التى

حفظت لنا حياة النبى ﷺ وسنته وعاداته وصفاته وسلوكه فى معاشه ومعاده، فحفظت لنا أكثر أحاديثه ﷺ فقامت بالدور خير قيام فاستحقت: من أحب الناس إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة». إنها الصديقة بنت الصديق، إنها أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر -رضى الله عنهما.

وغير ذلك كثير من النساء اللاتى حملن الدعوة على كاهلهن، وقمن بالدور كاملاً، انطلاقًا من الحرية التى أقرها لهن الإسلام، رحمهن الله ونفعنا بهن.

هذه هى الحقيقة، وهذا ديننا وتاريخنا، إلا أن ذلك لم يرض المستعمر الغاصب الذى «نسب إلى الغرب احترام المرأة، وإلى الإسلام احتقارها، وهكذا رمتنى بدائها وانسلت، وظهرت تلك الدعاوى فى كتابى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» لقاسم أمين، وناصرته فى ذلك هدى شعراوى ومن على شاكلتها. وقام فى وجه هذه الدعاوى التيار المحافظ ومنه طلعت حرب وكتابه «تربية المرأة والحجاب»، ومن أنصار هذا الاتجاه زينب الغزالى، وملك حفنى ناصف «باحثة البادية»[1]. وبذلك استطاع المحتل أن يطمس معالم ثقافتنا، ويضرب بعضنا ببعض، وليزرع فى أرضنا ومن أبنائنا مخلصين له، منفذين لخططه وبرامجه، ورغم أنه عجز عن السيطرة على أجزاء منها وبعض عقولنا.

(١) انظر المرأة فى التصور الإسلامى، د. عبد المتعال محمد الجبرى، مكتبة وهبة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٤، ص ١٥٣ وما بعدها.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره على امتداد العصور؛ ليثبت صلاحية منهجه على امتداد الزمان والمكان، فإتاحة الفرصة للرجل بالزواج بأكثر من واحدة كانت محل نقد للمنهج الإسلامى، رغم أنها سمة مميزة له تساعد على استمرار الأسرة وتماسكها، فإن كره المسلم العيش مع زوجته جاز له أن يتزوج بأخرى، ويحافظ على أسرته الأولى، أما الآن فقد «لمسنا فى أوربا أن القانون المدنى لا يسمح إلا بزواج امرأة واحدة، ولهذا كثيرًا ما يترك الرجل زوجته وأولاده وأسرته ليعيش مع خليلة أخرى أو أكثر بغير زواج، فكثر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين فى معظم البلاد الأوربية»[1]. يتضح من ذلك حكمة الإسلام فى تشريعه، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [المدثر: ٣١]؛ وليكون ذلك من المعينات على هذا الطريق.

هذه حرية المرأة فى إسلامنا الحنيف، ولها أن تعمل، ولها أن تسافر، ولها أن تلى الناس وتستأمر، كل ذلك فى الإسلام، وله أطره وضوابطه المميزة التى تحافظ على هذه الحرية ولا تضيق بها.

(١) عظمة الإسلام، ٢/ ٢٣٥.

الفصل الثالث
الحرية فى الغرب

أولاً: الكنيسة والعلم.

ثانيًا: الحرية الاقتصادية والسياسية.

ثالثًا: المرأة بين الإفراط والتفريط.

كثيراً هى تلك القضايا الشائكة التى تتصل بالحرية والديمقراطية فى الغرب، أولئك الذين نصبوا أنفسهم قضاة، وملائكة لمحاكمتنا للإخلال ببنود الحرية ومبادئها:

أين هم أنفسهم من الحرية؟

هل تعانى المرأة من الاضطهاد؟

أم هل تعانى من التسيب والانحلال؟

هل حقًّا المجتمع الغربى مفكك الأواصل مهلهل الروابط؟

وإذا كان الأمر هكذا فكيف استطاعوا بناء هذه الحضارة؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير تثير فى النفس شوقًا إلى معرفة الحقيقة والوقوف على أبعاد القضية وخباياها، لنحاول جاهدين الحديث عن الحرية فى الغرب متحلين فى ذلك بالدقة والحياد، دون تعسف فى إفراط أو تفريط، فالمنهج العلمى يحتم علينا ذلك، وإلا وصلنا إلى نتائج مشوهة، ونظريات باطلة، ومناهج لا تسمن ولا تغنى من جوع.

أولاً: الكنيسة والعلم:

لنعد إلى الوراء قليلاً قبل الخوض فى الحرية حديثًا، إلى عصور الظلمات تلك التى تسمى بالعصور الوسطى الأوربية

التى كانت عصور جهل وضلال وظلمات بعضها فوق بعض، فى ذلك الوقت التى كانت فيه الحضارة الإسلامية تبهر العالم شرقًا وغربًا بما وصلت إليه، وتنشر النور فى ربوع الأرض معلنة ميلاد عهد جديد من الحرية والحضارة، لنرى ما موقف الغرب فى ذلك الوقت من العلم والعلماء.

كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تسيِّر كل شىء، وكان هناك تحالف أو اتفاق ضمنى بين الإمبراطور الرومانى ورجال الكنيسة بأن يكون الحكم والسياسة للإمبراطور مقابل ألا يتدخل فى شئون الكنيسة وتعاليمها، بل ويخضع لها. وحدث قصور ما أو خروق فى هذا الاتفاق، فتم سيطرة الكنيسة على الدين والدولة فى أوقات، واستبد الإمبراطور بالأمر كله ضاربًا بالكنيسة ورجالها عرض الحائط فى أوقات أخرى، ولم يكن رجال الدين هؤلاء الذين يحفظون الدين، ويقومون على خدمته، بل كانوا ثلة من المنتفعين المتكسبين، فكان ذلك وبالاً عليهم فى النهاية. «ومن سوء حظ النصرانية أساء رجال الكنيسة استعمال هذا السلطان الهائل، فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم.. ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوربا، ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية من التاريخ والجغرافيا

والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر.. ولم يكتفِ رجال الدين بذلك بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن، واشتهر بين الناس.. وصبغوها صبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين وأصوله.. وكفروا كل من لم يدن بها»[1].

هذه الجرأة على الكتاب المقدس، والتحريف فى نصوصه وإضافة نصوص جديدة جر وبالاً على الدين والكنيسة، فضم هذه النصوص -مجرد الضم- يمنحها قداسة وتسليمًا لا يناله الشك والتأويل. وربما كانت النية حسنة، والغاية محمودة فى أن يتضمن الكتاب المقدس الحقائق التى وصل إليها العلم، ولكن كانت الوسيلة خطأ وقاصرة، فوضعت بذلك الكنيسة فى موضع لا تحسد عليه.

ولأن العلم تراكمى، لا يتوقف عند حد معين، فما يكون صحيحًا الآن مسلمًا به قد يظهر قصوره وزيفه فى مقبل الأيام، ولأن الطبيعى والمعلوم من المسلمات أنه لا يمكن أن تتناقض النصوص المقدسة على ما وصل إليه العلم، فإن النصوص المقدسة من الله العالم بكل شىء، فقد كشفت الحركة العلمية الأوربية فى ذلك الوقت حقائق علمية تخالف ما تقول به

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو الحسن الندوى، مكتبة الدعوة، القاهرة، بدون ص ١٧٤ وما بعدها.

الكنيسة وتعتقده، ولم تكن حالة أو اثنتين، بل كانت ظاهرة تستحق التوقف، ووضعت الكنيسة فى مأساة إما أن تصير فى لجة الوهم، وتتمادى فى ضلال الجهل حفاظًا على الشرف والسمعة التى لم تكن موجودة أصلاً، وإما أن تخضع وتعترف بالخطأ، وتعلن انحرافها، وتغير نصوص الكتاب المقدس؟!

لا نقول إنهما خياران أحدهما مر، وإنما كان من الممكن أن تعترف الكنيسة بالخطأ وتساير العلم، وتكمل مسيرة الحضارة، وعند ذلك يرتفع شأنها ويزيد تقديرها، والثقة فيها فى نفوس معتنقيها. إلا أنها لا التمساح شابهت ولا العصفور قلدت، وتمادت فى ظلمات جهلها، وعقدت ما يسمى بمحاكم التفتيش، وهى محاكم صورية تثبت فيها التهم على من يرفض أقوال الكنيسة، ومن ثم يأمر بحبسه وتعذيبه وقتله أو حرقه.

وقدمت محاكم التفتيش خدمة جليلة للجهل والضلال، حيث «حكمت فى مدة لا تزيد على ثمانية عشر عامًا من سنة ١٤٨١م -١٤٩٩م على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق فشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة فنفذت»[1].

(١) موقف الإسلام والكنيسة من العلم، عبد الله المشوخى، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٣٨ وما بعدها.

وبذلك كان الخيار الأول، وأسهل ما تسلكه الكنيسة أن تريح هذا المفكر من رأسه، ومن عناء تأمله؛ لأنه رجل كافر لا يؤمن بالله.

ووقع فى قبضة هذه المحاكم الكثير من العلماء والمفكرين، الذين دفعوا ثمن علمهم وتفوقهم من دمائهم وحياتهم، فهذا «جاليليو الذى توصل بالبحث إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وهناك سيارات أخرى تزيد على السبعة التى ذكرت الكنيسة فى الكتب المقدسة.. وفى سنة ١٦١٥م وقف جاليليو، أمام محكمة التفتيش فى روما، وعذب عذابًا شديدًا، مما اضطره إلى التراجع، وأعلن -وهو جاثٍ على ركبتيه- أمام البابا «إربان الثامن» الاعتراف الآتى: أنا جاليليو، وفى السبعين من عمرى، سجين جاثٍ على ركبتى، وبحضور فخامتك، وأمامى الكتاب المقدس الذى ألمسه بيدى، أعلن أنى لا أشايع، بل ألعن وأحتقر خطأ القول، وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور... وبسبب الإيمان بهذه الحقائق العلمية قبض على «جيور دانو برونو» فى البندقية ووقف أمام محاكم التفتيش، وحكم عليه بالسجن ستة أعوام، ثم أحرق حيًّا، وذريت بقاياه الترابية مع الريح.. ولم ينقذ كوبرنيكوس -المؤمن بهذه الحقائق أيضًا- سوى الموت، وصودرت كتبه وأحرقت بعد ذلك»[1].

(١) انظر: نفس المرجع، ص ١٣٩ وما بعدها.

وبذلك وقف العلم يحاكم فى محكمة غير عادلة، ستظل خزيًا وعارًا على جبين الزمان أمام الجهل، ونجح الجهل والضلال فى الفوز، وتراجع العلم مكرهًا، أو سقط واقفًا لم ينحنِ أمام هذا الجبروت، وبذلك تسببت الكنيسة فى عداء العالم الغربى لتصبح أوربا -وبسبب الكنيسة- لا دينية، كما تسببت أيضًا فى تأخير تلك النهضة العلمية، والوقوف حائلاً دون النور، فقتل هؤلاء العلماء يبث روح الخوف والفزع فى نفوس طلاب العلم والباحثين، وتدعوهم ليريحوا أنفسهم وعقولهم ليسلموا مقودهم طائعين أو كارهين لذلك القائد الجاهل، ليقودهم -عن علم- إلى الهاوية. هذا فضلاً عن كتمان العلماء الأحياء لهذا العلم، فقد كانوا يؤمنون بتلك الحقائق إلا أنهم لا يقدرون على البوح بها، بل كانوا يعلمون الطلاب أن الأرض لا تدور وأن المدارات سبع.

هذا فى الوقت الذى كان الدين الإسلامى يشع نورًا فى الكون، ويجعل طلب العلم والنظر فى الكون عبادة وفريضة، ويكرم العلماء ويمنحهم الأوسمة والدرجات، ويجرى على طلبة العلم الأرزاق ليتفرغوا لطلب العلم، والمساجد كثيرة والمدارس منتشرة، ولا عزاء للكنيسة.

تلك هى حرية العلم وحركته، والتفكير ودعوته فى نظر الكنيسة.

ثانياً: الحرية الاقتصادية والسياسية:

كثيرة هى تلك النظم والنظريات الاقتصادية والسياسية التى يتبناها العالم، يوضع النظام ليساهم بشكل كبير فى رفاهية الأفراد، وحماية الدولة، وتحقيق الرقى والحضارة. ولكن كل هذه الأنظمة تنطوى على جوانب من القصور كثيرة؛ فالنظام الرأسمالى وهو نظام يتمتع بميزات كثير، ، ويعطى الفرصة والمجال للاستثمارات، والحرية للأفراد فى ممارسة النشاطات الاقتصادية المختلفة، ورغم تحقيق نتائج كبيرة للاقتصاد العالمى، إلا أنه نظام فاشل، وبه الكثير من جوانب القصور، فهو «نظام ربوى... يقوم بالربا وللربا وعلى الربا... وأدى إلى ضعف الوازع الدينى، وطغيان الجانب المادى، واستغراق الحياة فى السعى على الرزق... وضعف طبقة الناخبين وتأثر ذممهم بمحاولات الشراء الرأسمالية، وسيطرة رأس المال على الحكم»[1].

هذا النظام الربوى أثبت فشله الذريع على المستوى العالمى، فتسبب فى أزمة مالية اجتاحت العالم؛ نظراً لارتفاع قيمة الفوائد -الربا- على القروض المتوسطة والكبيرة، مما تسبب فى عجز المستدين من السداد، فسقط بذلك النظام الاقتصادى

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، د. على جريشة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م، ص ١٤٢.

العالمى، وخسر أكثر من ٦٥٠ مليونًا وظائفهم بسبب الانحراف عن المنهج الإسلامى، والعمل بالربا فى كل التعاملات الاقتصادية.

وهذه هى حرية ممارسة الحرية، تلك التى جنت علينا الكثير من الويلات، ولا تمت بصلة لحرية التملك أو التجارة، فقد صار الاحتكار سمته، والاستغلال والوصول مبادئه.

ولم يكن النظام الشيوعى الاشتراكى بأحسن حالاً من الرأسمالى، هذا النظام الذى قام خصيصًا بعد فشل النظام الرأسمالى، حيث أعلى النظام الاشتراكى من قيمة المجموع فى مقابل الفرد فى النظام الرأسمالى، ومنع التملك والاحتكار إلا للدولة، فالدولة هى الكيان الوحيد الذى يحق له الاحتكار والاستبداد بكل شىء.

ورغم مناداة الشيوعية بالحرية السياسية إلا أنها وقفت ضدها على طول الخط، ومنعت من ظهورها، فقد فرضت الديكتاتورية البروليتارية، وسعت إلى «تركيز السلطة، فيتسلط على الشعب -فى الأغلب- حزب واحد، وإن اختلفت أسماؤه، ويتسلط على الحزب لجنة «مركزية أو تنفيذية عليا»، ويتسلط على اللجنة شخص واحد هو الذى بيده الأمر كله»[1].

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٢٠٠.

وبذلك وصلت الشيوعية إلى طريق الديمقراطية الرأسمالية إلى سلطة الفرد المطلقة وتحكمه فى كل الأمور. وسقطت كل أقنعة الحرية السياسية بمناداة رأس الشيوعية بأن يكون العالم كله شيوعيًّا وممارسة كافة الطرق والأساليب فى سبيل تحقيق ذلك، ففى رسالة لينين إلى مكسيم جوركى يقول: «لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم، ليكون الربع الباقى شيوعيًّا»(١). فالحرية السياسية أن يصير العالم شيوعيًّا، ولو بالقتل، ولا يتحرج الشيوعيون من المناداة بذلك علنًا، وكأنه فكر سياسى مشروع.

كذلك ومن حرية الإنسان وخصوصياته، ولكثرة أعداء الدولة الشيوعية، فقد فرض التجسس مبدأً، وسياسة، ومنهجًا، وتشكل فى سبيل ذلك مجموعات كثيرة، وكان من الوطنية أن يتجسس الرجل على زوجته، والابن على أبيه، والأخ على أخيه، ويالها من وطنية حين يقدمه للمحاكمة ويشهد عليه؛ لاعتقاده مبدأ سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو فكرًا آخر، «وتصير كل مجموعة متمثلة فى جهاز ليست فقط رقيبة على الشعب، بل فى نفس الوقت رقيبة على المجموعة الأخرى، . . . وتستحل حرمات الناس، وتقتحم على الناس منازلهم، بل مخادعهم بأجهزة التنصت»(٢).

(١) أعداء الحل الإسلامى، د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ١٢٧.

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٢٠٦.

تلك هى الحرية السياسية والاقتصادية، والتى وضعت لإصلاح ما أفسده النظام الرأسمالى، فانتقلنا من نظام فاسد إلى نظام أشد فسادًا، وأبعد خطرًا، وأعلنت الشيوعية فشلها، تتبع مثيلتها الرأسمالية إلى سلة المهملات الفكرية المنهجية.

فشلت الشيوعية حين «صادمت الفطرة إذ نادت بالإلحاد، وحين صادمت الفطرة إذ نادت بإلغاء الملكية الفردية، وحين صادمت الفطرة إذ نادت بإلغاء الأسرة»(١). ولأجل مصادمة الفطرة السوية، وإهمال حرية الأفراد، وقمع الحريات، والمناداة بأن «لا حرية لأعداء الحرية»؛ فشلت كل هذه الأنظمة فى قيادة العالم.

وخلاصة القول: «إن أكبر عيوب الليبرالية الديمقراطية العلمانية هو خلوها من العنصر الروحى، بل إغفالها له إغفالاً مقصودًا... وقد أثبتت التجارب أن الدين هو أهم شىء فى وجود الإنسان»(٢).

كل المناهج التى تبعد بإطارها عن طبيعة الإنسان، وحقيقة المنهج شأنها إلى زوال وفشل. إن المنهج القويم الذى يملك الخلاص لهذه البشرية الشقية فى الإسلام، ولا نقول ذلك عن

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ١٩٠.

(٢) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوى، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط١٧، ١٩٩٥م، ص ١١٢.

تمنٍّ ولا لأننا مسلمين، وإنما لإثبات ذلك بالتجربة والحقائق، فالله الذى خلق الإنسان هو من وضع هذا المنهج، وهو أعلم بما يصلحنا وما يفسدنا.

ثالثًا: المرأة بين الإفراط والتفريط:

كثر الكلام عن وضع المرأة فى المجتمع الغربى، وعن جهادها بكل السبل لنيل حريتها وحقوقها، بل أكثر من ذلك فقد غالت فى ممارسة هذه الحرية وتلك الحقوق إلى مدى أبعد من المعقول. والحق أن حربًا ضروسًا كانت دائرة حول المرأة فى المجتمع الغربى من احتقارها والحط من شأنها، إلى إعلاء مكانتها، وتعسفًا فى حريتها، هذا يفرط فى حقها، وذاك يغالى فى حريتها، ولا هذا ولا ذاك وضع لها مكانتها اللائقة بها دينيًّا وتاريخيًّا، وبين هذا وذاك تصاغ قوانين، وتوضع أيديولوجيات، وتقام مؤسسات. إلا أن ذلك لم يفلح.

بدأت هذه الحرب الضروس بالخروج عن تعاليم العقل والمنطق وازدراء المرأة، وتعمد الحط من شأنها، والتقليل من قيمتها وأهميتها فى المجتمع، فهذا سقراط يقول: «للرجال السياسة وللنساء البيت»، وأفلاطون «كان يأسف لأنه ابن امرأة.. وظل يزدرى أمة لأنها أنثى»، أما نيتشه فيؤكد: «إذا قصدت النساء فخذ السوط معك»[1]، هذا الازدراء هو جل ما

(١) الغرب والإسلام، أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ٢٤٨.

وصل إليه فلاسفة الزمان، وعباقرة العصر، وكأن المرأة ليست إنسانًا له الحق فى الحياة والعيش عيشة كريمة مصونة.

ولعل هذا رأى الفلاسفة الذين لا يراعون دينًا، ولكن بالتأكيد للتراث الدينى اليهودى والمسيحى -اللذين أصبحا تراثًا للحضارة الغربية اليهودية والمسيحية- رأى آخر، ولكن هيهات؛ فالخروج عن التعاليم الدينية طال كل الجوانب، وجميع الجهات «فاليهودى يصلى كل صباح صلاة الشكر لله؛ لأنه لم يخلقه عبدًا ولا وثنيًّا ولا امرأة»، أما التراث المسيحى، فالقديس بونافنيز يقول -بحكم كهنوته وعلمه الدين الواسع، وخبرته الحياتية: «إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم شاهدتم موجودًا بشريًا، ولا موجودًا موحشًا؛ لأن ما ترون هو الشيطان نفسه، وإذا ما تكلمت فإن ما تسمعونه هو فحيح الأفعى»[1].

هذه الأقاويل والتى ينطق بها صفوة القوم من فلاسفة ورجال دين من شأنها أن تؤجج نار العداوة فى نفوس المرأة، ومحاولة فرض نفسها بالقوة وشتى الطرق، وسعيها اللاواعى الأنثوى فى العالم الغربى، وبعد قراءة هذه الأفكار وغيرها «هل نجد غرابة فى غلو النزعة الأنثوية المتطرفة، عندما تمركزت حول ذاتها واحتقرت الرجل، وأعلنت عليه الحرب.. هل نجد غرابة فى رد الفعل المغالى هذا أمام هذا التراث الدينى للحضارة

(١) الغرب والإسلام، أين الخطأ وأين الصواب، ٢٤٩ وما بعدها.

الغربية، ذلك الذى حمل كل هذا الازدراء والاحتقار والدونية تجاه الأنثى، مطلق الأنثى»[1].

أما الجانب الآخر، والذى انطلق من هذه النصوص وشعر بالاحتقار، فقد كان رد فعله عنيفًا للغاية، هز كيان العالم بأسره، وهدد الارتباط والاستقرار بين سائر البشر، إنها النزعة الأنثوية المتطرفة التى ظهرت فى ستينيات القرن الماضى، والتى سعت لنيل حقوقها بل المغالاة فيها إلى حد الاستغناء عن الرجل مطلقًا، والاكتفاء بالمثل، ليكون صفعة لا على وجه الرجال، وإنما على وجه الإنسانية والفطرة، تلك النزعة التى نادت بتحرير المرأة من كل شىء: من البيت، والانتماء، والغيرة، ومن الرجل.

وبدأ دعاة هذه النزعة ومفكروها يبثون أفكارهم ويدعون إليها، فيطالب فورييه بتحرير المرأة على كل الأصعدة: البيتى والمهنى والمدنى والجنسى، وقال: إن العائلة تكاد تشكل سدًّا فى وجه التقدم، وما كان منهج ماركيوز هربرت سوى «التأكيد على انعتاق الغرائز الجنسية، وإطلاق الحرية الجنسية بلا حدود، سواء من ناحية الكم أو الكيف، أو حتى حرية الشذوذ... بل وتمجيده باعتباره ثورة وتمردًا ضد قمع الجنس، وضد مؤسسات القمع الجنسى، معتبرًا التحرر الجنسى عنصرًا مكملاً ومتممًا

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٠.

لعملية التحرر الاجتماعى... ورافضًا ربط الجنس بالتناسل والإنجاب»، بل دعت الفلسفة الأنثوية المتطرفة إلى جعل «تربية الأطفال مسئولية الدولة والمجتمع، لا المرأة والأسرة»(١).

وهكذا تتطرف المرأة إلى المغالاة فى المطالبة بحقوقها والانتقام من الرجل، والتفنن فى إفساد المجتمع، وهذه عاقبة المجتمع الذى يغفل عنصرًا مهمًّا من عناصر بنائه. إن دعاوى المثلية والسحاق لتنبع من هذه الأفكار الهدامة التى ترفض الأسرة، وتدعو للتخلص من قيد الحياء الذى يعد «داء يجب العلاج منه».

وبذلك تم ابتذال هذا الإنسان فى تسويق السلع، والحملات التجارية، «وهناك صناعات ووظائف مهمة جدًّا للنظام الاقتصادى والاجتماعى تقوم على هذه النظرة، فصناعة الإعلام تقوم على هذا، حيث يقحم جسد المرأة الشابة العارى ليكون مجتذبًا فى الإعلان عن أية صناعة أو سلعة، وتوظف فى هذا آلاف -بل عشرات الآلاف- من جميلات النساء، بعد أن يقوم فنانون متخصصون بكشف أجزاء من جسدها وتغطية أجزاء أخرى.. وصناعة السينما والعروض المسرحية وعروض البالية تفعل مثل هذا، أما الإستربتيز الذى تتعرى فيه المرأة قطعة قطعة -بطريقة مدروسة- فهى مبذولة فى كل عواصم الغرب ومدنه،

(١) الغرب والإسلام، أين الخطأ وأين الصواب، ص ٢٣٦ وما بعدها.

وأما أفلام الجنس فهى أفحش وأفحش، وكذلك صناعة الدعارة بالرقيق الأبيض»[1].

وهكذا فقد صار هذا الإنسان -المرأة- سلاحًا يحارب به الرجل، وأدى تغيير كيمياء العلاقة بينهما إلى فساد المجتمع وتهديد استقراره بما ينذر بحدوث كارثة ظهرت جليًّا بالأرقام فى إحصاءات تتصل بالمرأة فى مجالات مختلفة فـ «٩٥٪ من الجنسين فى السويد عندهم تجارب جنسية قبل الزواج، تجارب ممارسة طبيعية وعادية، وفى سنة ١٩٨٥م فإن ٥٩٪ من حوادث الطلاق بسبب العنف المنزلى. وفى إنجلترا فإن ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك، وفى سنة ١٩٨٨م بلغت نسبة النساء اللاتى يعشن مع رجل دون رباط رسمى ٢٠٪، فى حين بلغت نسبة العائلات المنفردة -أى الأطفال الذين يعيشون مع عائل واحد- فى عام ١٩٩١م حوالى ٢٧٪.

وفى الدنمارك فإن نسبة المواليد غير الشرعيين عام ١٩٩٠م ٤٦٪. وفى أمريكا أم الحضارة والحرية، فإن ٨٠٪ من النساء فقدن البكارة قبل الزواج، وفى سنة ١٩٩٣م كانت تغتصب امرأة كل دقيقة وغالب الضحايا فى سن تقل عن ١٧ عامًا،

(١) قضايا المرأة والطفل فى ضوء السنة، د. محمد البلتاجى، د. محمد المنسى، دار الهانى، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٧١.

و٨٠٪ من جرائم القتل عائلية و٤٨٪ منها مسرحها البيت. وبلغ عائد الولايات المتحدة من الاستغلال الجنسى لدعارة الأطفال -الأطفال فقط- مليارى دولار سنويًا»[١].

هذه الأرقام تنطق بما وصل إليه هذا المجتمع من انحلال أخلاقى، وتفكك اجتماعى ينذر بكارثة أخلاقية توشك أن تعصف بهذه الحضارة. هذه الأرقام تكشف القناع عن زيف هذه الحضارة وتلك الحرية، ولعل مفكرى المجتمع الغربى قد فطنوا إلى ذلك حين قالوا: «إن الحضارة تقوم على جوانب مادية وأخرى روحية، وإن الحضارة الغربية بلغت شأوًا بعيدًا فى الجانب المادى، وانحطاطًا كبيرًا فى الجانب الروحى، فهى كالطائر الذى يطير بجناح واحد، ومصير الطائر الذى يطير بجناح واحد السقوط مهما بلغ من قوة».

***

(١) انظر: الغرب والإسلام، أين الصواب وأين الخطأ، ص ٢٥٤ وما بعدها.

المراجع

١- أخلاق العلمـاء -الآجرى (الإمام أبو بكر)- مكتبـة التراث الإسلامى- القاهرة- ١٩٨٧م.

٢- الاتجاهات الفكرية المعاصرة -د. على جريشة- دار الوفاء- المنصورة- الطبعة الثالثة- ١٩٩٠م.

٣- الأدب المفـرد -البخـارى (محمـد بن إسـماعيـل)- خرج أحاديثه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٤- الإسلام وحقوق الإنسان -د. محـمد عمارة- دار السلام- القاهرة- الطبعة الأولى- ٢٠٠٥م.

٥- الإسلام كما يراه الأوربيون -د. محمد غلاب- هدية مجلة الأزهر- المحرم- ١٤٣٠هـ.

٦- الإسـلام والأمن الاجتـمـاعى -د. محـمـد عمـارة -دار الشروق- الطبعة الأولى- ١٩٩٨م.

٧- أعـداء الحل الإسـلامى -د. يوسف القـرضاوى -مكـتبـة وهبة- الطبعة الأولى- ٢٠٠٠م.

٨- الإنسان فى القرآن الكريم -عـباس محمود العقـاد- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٦م.

٩- تفسير السعدى -عبد الرحمن السعدى- مكتبة الإيمان- المنصورة- الطبعة الأولى- بدون تاريخ.

١٠- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) -القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى)- دار الريان للتراث- القاهرة- ١٩٨٧م.

١١- حرية الرأى الواقع والضوابط -المستشار. سالم البهنساوى- دار الوفاء- الطبعة الأولى- ٢٠٠٣م.

١٢- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا -د. يوسف القرضاوى- مؤسسة الرسالة- سوريا- الطبعة السابعة عشر- ١٩٩٥م.

١٣- سنن ابن ماجة -ابن ماجة- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى- دار الريان للتراث- القاهرة- بدون تاريخ.

١٤- السنن الكبرى -البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين)- تحقيق محمد عبد القادر عطا- دار الباز- مكة المكرمة- ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

١٥- شعب الإيمان -البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين)- تحقيق: محمد السعيد بسيونى زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت.

١٦- صحيح مسلم -أبو الحسن مسلم بن الحجاج- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

١٧- عظمة الإسلام- محمد عطية الإبراشى- مكتبة الأسرة- الجزء الثانى- ٢٠٠٢م.

١٨- الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب -د. محمد عمارة- مكتبة الشروق الدولية- الطبعة الأولى- ٢٠٠٤م.

١٩- فتح البارى بشرح صحيح البخارى، ابن حجر العسقلانى- دار الريان للتراث- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٢٠- الفكر السياسى للإمام محمد عبده -عبد العاطى محمد أحمد- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- ٢٠٠٥م.

٢١- فى ظلال القرآن -سيد قطب- دار الشروق- الطبعة السابعة والثلاثون- ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٢٢- فى المنهج الإسلامى -د. محمد عمارة- المعهد العالمى للفكر الإسلامى- الطبعة الأولى.

٢٣- قضايا المرأة والطفل فى ضوء السنة -د. محمد بلتاجى- د. محمد المنسى- دار الهانى- القاهرة- ٢٠٠٧م- بدون طبعة.

٢٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ -أبو الحسن الندوى- مكتبة الدعوة- القاهرة- بدون طبعة.

٢٥- المحاور الخمسة للقرآن الكريم -محمد الغزالى- دار الصحوة- الطبعة الرابعة- ١٩٩٤م.

٢٦- المرأة فى التصور الإسلامى -د. عبد المتعال محمد الجابرى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة العاشرة- ١٩٩٤م.

٢٧- المستدرك على الصحيحين -محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابورى- تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٢٨- مسند أحمد -أحمد بن حنبل- دار الفكر للطباعة والتوزيع- بيروت- بدون تاريخ.

٢٩- مشكلة الحرية -زكريا إبراهيم- مكتبة مصر- الطبعة الثانية- ١٩٦٣م.

٣٠- معالم الثقافة الإسلامية -د. عبد الكريم عثمان- مؤسسة الرسالة- الطبعة الثالثة عشر- ١٩٨٥م.

٣١- المعجم الوسيط -مجمع اللغة العربية- القاهرة- بدون تاريخ.

٣٢- موسوعة حول الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى - خديجة البزاوى- دار السلام- الطبعة الأولى- ٢٠٠٤م.

٣٣- موقف الإسلام والكنيسة من العلم -عبد الله المشوخى- مكتبة المنار- الأردن- الطبعة الأولى- ١٩٨٢م.

٣٤- هموم الأمة الإسلامية -د. محمود حمدى زقزوق- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الأولى- ٢٠٠١م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول: تأصيل الحرية فى الإسلام	
المبحث الأول: معنى الحرية	٩
المبحث الثانى: الحرية فى القرآن والسنة	١٢
الفصل الثانى: ألوان الحرية فى الإسلام	
المبحث الأول: الجبر والاختيار	١٩
المبحث الثانى: ألوان الحرية	٣٠
أولا: حرية الاعتقاد	٣١
ثانيًا: حرية الإرادة	٣٥
ثالثًا: حرية الرأى	٣٦
رابعًا: حرية التملك	٤٢
خامسًا: حرية التعليم	٤٥
سادسًا: حرية العمل	٥١
سابعًا: حرية المرأة	٥٥

الفصل الثالث: الحرية فى الغرب

أولا: الكنيسة والعلم ٦٧
ثانيًا: الحرية الاقتصادية والسياسية ٧٣
ثالثًا: المرأة بين الإفراط والتفريط ٧٧
المراجع ٨٣
الفهرس ٨٧

***